

روايتان قصيرتان

الطبعة 3

في عشرة الجان

حسن الجندي

دار اكتب

jüşť łęgęñđ

في حـــضرة الجـــان

حسن الجندي

روايتان قصيرتان

تصميم الغلاف: محمد عيد

رقم الإيداع: 2015/3066

I.S.B.N: 978-977-488-368-2

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E – mail: daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة ،2015م

جميع الحقوق محفوظة©

دار اكتب للنشر والتوزيع

jůsť łęgeňd

في حضرة الجان

حسن الجندي

روايتان قصيرتان



دار اكتب للنشر والتوزيع

ĵúşť łęgęñđ

الغواصة 633

إهداء

إلى أرواح رجال القبور الحديدية المسماة بالغواصات
كتب عليكم القتال في صمت والموت في صمت.

الحرب رائعة .. لأولئك الذين لم يجربوها بعد

(ديسدريوس إيراسموس – فيلسوف هولندي)

1

لقد وصلت للسادسة والسبعين من العمر، ولا أملك ما أتذكره عن حياتي إلا القليل، تزوجت وأنجبت وأنهيت عملي في القوات البحرية المصرية بشكل مشرف، لم يسألني أولادي عن أي عملية حربية قمت بها، كأنني عملت في الأرشيف بإحدى المصالح الحكومية، برغم أن خبرتي القديمة في حرب الغواصات جعلت مني مستشارًا غير رسميًا للعديد من ضباط البحرية أثناء خدمتي وبعد خروجي على المعاش.

لكني تعودت على عدم الفضول من عائلتي فيما يخص عملي، حتى الصحف العالمية التي كتبت عني واحتفظت بقصاصاتها لم يفكروا في الاطلاع عليها أو سؤالي بشكل عابر، وبالطبع لن أفرض نفسي عليهم، فاحتفظت بتفاصيل عملي لنفسي ولضباط البحرية ممن سمعوا من قادتهم عن عملياتي الحربية والاشتباكات التي قمت بها.

اسمي (محمود عبد الفتاح البدوي)، كنت من الرعيل الأول الذي تدرب على الغواصات في مصر، تلك القبور الحديدة الغائصة في الماء التي يسميها البعض (الموت الصامت).

صفة الموت تشمل العدو، وتشملك أنت أيضًا، خطأ بسيط تفعله داخل المياه يحول غواصتك من آلة هجومية إلى قبر فريد من نوعه، تموت داخله ببطء شديد يسمح لك بلعن نفسك ألف مرة على دخوله من الأساس.

في عام 1957 أُرسلت بشكل سري مع الكثير من الضباط إلى (بولندا) للتدرب على قيادة الغواصات، وخاصة بعد أن أرسل الاتحاد السوفيتي لمصر بعض غواصاته التي خرجت من الخدمة.

تخصصت في البداية في الطوربيدات، كانت في هذا الوقت بدائية مقارنة بما تم تطويره منها في السنوات التالية، فلزم على قائد الغواصة الذي يرصد الهدف أن يعرف سرعته واتجاهه، ويتوقع وصوله لنقطة معينة يقوم عندها بإطلاق الطوربيد؛ ليصدم بأسفل الهدف عند هذه النقطة المتوقعة.

هذا غير أن الطوربيد يخرج الكثير من فقاعات الهواء من خلفه فيسمح للسفينة أو المدمرة برؤيته من مسافة كبيرة، عندها تتمكن من إجراء مناورة سريعة للهروب منه.

أنهيت تدريبي وعدت لمصر مع بقية زملائي نستعد لقيادة تلك الوحوش البحرية المخيفة، منتشين بالدورة التدريبية البسيطة التي حصلنا عليها.

ترقينا في مناصبنا وأصبحت أنا (قومندان) غواصة عام (1965)، وظللت حتى ترقيت لقائد لواء غواصات في (1974)، قامت الغواصات في فترة حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر بالكثير من العمليات تتعدد بين الاشتباك مع قطع بحرية إسرائيلية أو التنصت على رادارات العدو أو زرع قنابل أعماق وغيرها من العمليات التي ظلت غير معلنة في الكثير من الأحيان داخل مصر؛لطبيعة عمل الغواصات السرية التي تعتمد على خداع بعض الدول الصديقة، والمرور من مياهها الإقليمية أو قطعها البحرية إن استلزم الأمر، فيصبح الإعلان عنها بمنزلة لطمة للقوات البحرية لهذه الدولة، وتقليل من سيادتها على مياهها الإقليمية.

حتى هذه السن لم تحتفظ ذاكرتي بشيء مهم عن تلك العمليات الخطيرة بعد أن أصبحت ذكريات فقدت زهوتها بعد سنوات إلا ذكرى واحدة، لم أدونها في أي مذكرة رسمية أو أتناقلها شفاهة إلا في نطاق ضيق يسمح لي بالفضفضة ومشاركة أقرب زملائي فيما حدث.

في عام (1972) كنا نكلف بالكثير من أعمال الاستطلاع على الموانئ الإسرائيلية ونقاط الرادار ومواعيد دخول وخروج المدمرات والفرقاطات الإسرائيلية لموانئها، لم نعرف أسباب اختيار مناطق بعينها، وإن كنا نفهم ضمنيًا أننا نوفر معلومات

مهمة في رسم خرائط لبقية أفرع القوات المسلحة وللبحرية نستخدمها في عمليات لاحقة.

في 22 من شهر نوفمبر استدعاني رئيس شعبة البحرية صباحًا، وهو يكلفني بعملية سرية جديدة، سلمني حقيبة يد تحتوي على تفاصيل المهمة، مع تعليمات بعدم فتحها إلا في نقطة محددة في البحر الأبيض، وقال لي بالنص: إن تلك العملية لا يعلم بها إلا قائد القوات البحرية.

عدت لوحدتي لأجمع طاقم غواصتي فعرفت أن الغواصة التي أقودها دخلت في الصيانة بسبب اكتشاف تسرب في الزيت وعطل في نظام شحن البطارية، ولن تخرج قبل أيام، عدت لرئيس الشعبة بالخبر لنؤجل المهمة، لكنه أصر أن تبدأ اليوم.

أجرى بعض الاتصالات من داخل مكتبه، ثم قال لي: إن المتاح الآن الغواصة (633) والتي كانت ستخرج بعد ساعات في طلعة تدريبية روتينية، وافقت لكنه تناقش معي في فكرة عدم الاستعانة بكامل طاقمي ليحلوا موضع طاقم الغواصة (633) كي لا نثير الشبهات بالخروج في مهمة خاصة.

لو وصلت تلك المعلومة - ولو مصادفة - للقوات البحرية الإسرائيلية فستتخذ احتياطًا يكفي لفشل المهمة من الأساس، رفضت في البداية لكني وافقت على الاستعانة بخمس ضباط

و15 جندي دونت أسمائهم من طاقمي وقد بلغني بأن الغواصة تم إغلاق إحدى أنابيب الطوربيد بها منذ فترة بسبب مشكلة مزمنة، وأن الأنبوب الآخر سليم ولكن لن أحتاجه في مهمتي.

عدت لطاقمي بأمر خروج للتدريب للأسماء التي حددتها، انتقلنا بعدها للغواصة التي نسق رئيس الشعبة مع قائدها ليسلمها لي للقيام بطلعة تدريبية مع بعض طاقمه كي أزود أنا ومن معي خبراتهم في المناورات.

استلمت الغواصة بعدما نسقت مع قائدها السابق في توزيع طاقمي في أماكنهم بدلًا من الطاقم الأصلي، حتى أنني مررت عليهم جميعًا لأتمم بنفسي على كل أجزاء الغواصة، وفحصت أنبوب الطوربيد المعطل، وناقشت جندي الطوربيد الذي كان من طاقمي الأصلي الذي اخترته، تناقشنا حول سبب العطل، وفحصت الأنبوب الباقي الذي يعمل جيدًا إلا من بعض الثقل في فتح فوهته التي يخرج منها الطوربيد.

مشكلة بسيطة وجدتها في (الشنوركل) الذي يمد الغواصة بالهواء تحت الماء لكن المهندس طمأنني منها، بعض الأجهزة ناقشت الطاقم فيها وأبدوا ملاحظتهم التي جعلتني أتوكل على الله وأبدأ الإبحار مطمئنًا.

***

-"خايف الطقم القديم بتاع الغواصة مينسجمش في التدريب مع رجالتنا".

سمعت تلك العبارة من الرائد (يحيى) مساعدي وهو يدخل الكابينة علي، كنت أراجع بعض الخرائط الملاحية لأتأكد من وصولنا للنقطة المطلوبة لبدء العملية:

-"متخفش، هاياخدوا على بعض بسرعة، أنا متأكد".

لم أنظر له وأنا أتكلم، فتركني عائدًا لكابينة القيادة، لكنه فوجئ بي ألحقه حاملًا خريطة، وأنا أعطي الأوامر بتغيير اتجاهات الغواصة للخروج من المياة الإقليمية.

نظر جميع من في الكابينة لبعضهم البعض نظرة قلق، لم تستمر ثانية واحدة حتى عاد كل منهم بعدها في التركيز بعمله وأنا أعطي الإحداثيات الجديدة وأراقبها بدقة.

أمسكت ميكروفون المذياع الداخلي للغواصة وضبطته ليسمعني كل أفراد الطاقم:

-"كتير منكم ميعرفنيش لكن سمع عني، أنا قومندان الغواصة (محمود البدوي) اتشرفت النهاردة بالخدمة معاكم على ضهر الغواصة، احنا مش طالعين للتدريب زي ما تم تبليغكم، إحنا رايحيين لمهمة خطيرة كلفنا بها قائد البحرية بنفسه".

سكت لثوان أبحث عما أقول لأمتص صدمتهم، قلت:

-"التكليف ده شرف لينا كلنا، وحمل على أكتافنا لازم نكون قده، أنا واثق من كل فرد معايا هنا وواثق إنكم هاتشرفوا مصر في مهمتنا وترجعوا لأهلكم أبطال يفتخروا بيكم في كل مكان".

رفعت إصبعي من على الميكروفون، وأنا أشعر بأن كلماتي مفككة لم تثر أي مشاعر داخلهم عندما أتاني صوت الطاقم مكبرًا بحماسة يهز جدران الغواصة، ابتسمت وأنا أمسك الميكروفون مرة أخرى أطلب من الجنود أصحاب المهمات غير المستخدمة الآن أن يصعدوا لسطح الغواصة الطافية إن أرادوا.

فتح (يحيى) الهاتش العلوي للغواصة وخرج مع الجنود وبعض الضباط يستنشقون هواء البحر باستمتاع لحظة مغادرتنا للمياه الإقليمية.

عدت أنا لكابينتي مرة ثانية وقمت بفتح الحقيبة طبقًا لإحداثيات المنطقة التي تمر بها الغواصة، فوجدت بها مظروفين كُتب على واحد منهما (المهمة 1) فتحته فوجدت تكليفًا بالتسلل لميناء (حيفا) الإسرائيلي والتواجد على مسافة محددة منه.

دققت في المسافة فوجدتها أقرب من المسافة الآمنة لأي غواصة، احتمالات كشفها مرتفعة من تلك المسافة.

عدت لكابينة القيادة، وأنا أستعد لبداية المهمة، أطلقت صافرات الإنذار الخاصة بقرب قطعة معادية مع إعطاء أوامر بالغطس السريع، واتخاذ مراكز القتال لبدأ اشتباك، في الواقع، كان اختبارًا مني لتجانس أفراد الطاقم الذين اتخذوا مواقعهم بسرعة أمام معداتهم.

من كانوا على السطح قفزوا بانتظام داخل فتحة الهاتش وأغلقها آخرهم، والغواصة تغوص لعمق 10أمتار فقط، كنت قد حسبت سرعة الغطس للطاقم فوجدتها 37 ثانية وهو رقم مُرضٍ وبين لي قدرة الطاقم وسرعة حركته وثباته.

أمرتهم باللا سلكي بإعطائي تمام عمل على كل جهاز، جميع الأجهزة تعمل بكفاءة حتى سمعت تمام جندي الطوربيد (إبراهيم)، صوته لم يُرِحْني، حدثته فعلمت منه بأن رأسه قد أُصيب.

طلبت من الطبيب الذهاب لغرفة الطوربيدات وذهبت أنا الآخر لأجد (إبراهيم) يتربع أرضًا وجنديًا آخر صغير الحجم بملابس المطبخ يقف أمامه، ويضغط بقطعة قماش على رأس (إبراهيم).

جاء الطبيب واكتشفنا جرحًا يزيد عن سبعة غرز، فقام الطبيب بتخييطه دون إعطائه مخدرًا، وقد كانت شجاعة يحسد عليها.

-"إنت الطباخ؟"

قلتها للجندي الذي ارتدى ملابس الطبخ فأعطاني التحية وهو يقول:

-"جندي مقاتل (مصطفى عرفة) مساعد طباخ يا فندم".

-"جيت لغرفة الطوربيد ليه؟"

-"سمعت صوت من الأوضة والمطبخ قريب من هنا، جريت علشان أشوف إيه اللي حصل، لقيت دماغه مفتوحة وإظاهر كدة إن دماغه خبطت في باب أنبوب الطوربيد والغواصة بتعمل غطس سريع".

-" كويس إنه كتم الدم بسرعة"

قالها الطبيب الذي يخيط الجرح بدون أن ينظر لنا.

-"جدع يا (مصطفى)".

من بين أسنانه التي يجز عليها قال (إبراهيم):

-"طابخين إيه على الغدا يا (مصطفى)؟"

ضحكت فتبعني الجميع مفرغين ضغط تلك اللحظات.

-"ارتاح إنت يا (إبراهيم) وأنا هانزل حد مكانك في الطوربيدات".

قلتها لجندي الطوربيد فرفع يده معترضًا وهو يقول:

-"لا يا فندم، أنا كويس الحمد لله، شوية كدة وهافوق".

-"هاديك نص ساعة راحة لو مقدرتش تكمل بعدها هابعت حد ياخد مكانك".

-"تمام يا فندم".

غادرت الغرفة، وعدت إلى كابينة القيادة لأجد ضابط الإنذار يبلغني بأن جهاز الاستطلاع الراداري يلتقط مجموعة إشارات، حللنا الإشارات لنكتشف أنها قطع بحرية ضخمة على سطح الماء سنقابلها بطريقنا.

طلبت منه إرسال إشارة إلى قيادة القوات بموقع تلك القطع البحرية طالبًا الرد، جاء الرد بعد قليل بأن تلك القطع حسب الإحداثيات التي أرسلتها لهم طبقًا لخطوط الطول والعرض هي وحدات بحرية للأسطول السادس الأمريكي، ولم تتكلم الإشارة عن شيء آخر، لا أمرًا بالانسحاب أو المرور بينها، لقد تركوا الأمر لي.

قمت بعمل اجتماع سريع للضباط بالكابينة لنناقش تلك المصيبة، وقمت بعرض الحلول المتاحة.

-"مفيش غير إما اننا نطفي المحركات ونستنى لغاية ما الأسطول يتحرك من مكانه، أو إننا نلف حواليه".

قال (يحيى):

-"لو فضلنا تحت المية لحد ما يتحركوا ممكن يستنوا أيام والغواصة مش هاتستحمل إنها متطلعش لفوق علشان نشحن محركات الديزل عن طريق الهوا".

فزدت عليه أنا:

-"مفيش غير إننا نلف من مسافة أمنة حوالهم، لكن ده ممكن يأثر على الوقود الخاص بمهمتنا وممكن منقدرش نرجع القاعدة تاني".

-"ليه منحطش يا فندم إمكانية إننا نعدي من وسطهم، الموضوع صعب لكنه مش مستحيل، احنا درسنا أساليب خداع وتمويه كافية أوي إن محدش يكشفنا".

راقتني الفكرة برغم جنونها، نظرت لوجوه الضباط لحظات أتقوى بهم ليمنحوني الدعم النفسي لاتخاذ هذا القرار، استفسرت عن حالة المياه من الضابط المسئول عن تحليل عينات المياه التي نأخذها كل بضعة كيلومترات لنعرف نسبة الملوحة والكثافة، عرفت منه بعض الأعماق في المياه ذات الكثافة العالية التي من الممكن أن تقلل احتمالات اكتشاف الغواصة بدرجة كبيرة.

أنهيت الاجتماع ولم أتخذ قرارًا بعد، لو اكتشفتنا إحدى قطع الأسطول سأضطر للاشتباك معها، وستصبح فضيحة دولية لمصر وفي الغالب سيتم إغراقنا أو تتبعنا، وفي كل الأحوال النتيجة هي فشل المهمة الأصلية.

أمسكت الميكروفون وأنا أتحدث عبر المذياع الداخلي:

-"فيه قرار لازم أخد رأيكم فيه، اكتشفنا في طريقنا قطع بحرية تابعة للأسطول السادس، مهمتنا السرية تجبرنا إننا نعبر من تحته علشان نوصل لهدفنا، يإما نلغي المهمة ونرجع القاعدة تاني، الموضوع ملوش دعوة بالشجاعة أو الجبن، لو رفضتم بالإجماع إننا نعدي هانرجع والقيادة مش هاتتضايق، ولو وافقتم على العبور يبقى هانتوكل على الله ونشيل أرواحنا على كفوفنا في عملية صعبة جدًا الغلطة فيها بموتة، القرار ليكم".

لا أعرف كيف نظموا أنفسهم لكن لم تفت دقيقة إلا وجاؤوني فردًا فردًا كل واحد يتحدث بالنيابة عن مجموعة يذكر لي أسماءهم، الجميع يقبل المرور بحماسة حتى لم يبق على طاقم الغواصة فرد إلا ووافق.

***

2

أعطيت أمرًا بالغطس لثمانين مترًا وإخراج (بلوف) تحليل الماء لأتأكد من كثافة الماء كل متر، حتى أضمن صعوبة كشفنا.

المسافة التي كان يمكن قطعها في 3 أو 4 ساعات قطعناها في 48 ساعة، نقطع مترًا مترًا بحذر شديد بمناورة حساسة لنمر بين المسافات الآمنة للقطع البحرية.

غيرت عمق الغطس كثيرًا عندما وصلني اختلاف كثافة المياه، لا أعرف كيف تحمل رجال الغواصة هذه الساعات يتحركون بحذر ويتكلمون همسًا داخل الغواصة كي لا يلتقطهم الأسطول.

فقدنا الإحساس بالليل والنهار، وكدت أموت غيظًا من عدم التدخين، وبالتأكيد شاركني هذا الإحساس العشرات من رجال الغواصة لكن لم يشتك أحد.

جاء ضابط المراقبة ليبلغني أن النبضة الأخيرة، لم تسجل أي قراءات لقطع بحرية أمرته بإعادة النبضة مرة ثانية وثالثة ورابعة، النتيجة واحدة، أمرت بأن تعمل جميع الردارات وجاءني الرد بعدم وجود أي أهداف قريبة.

أمسكت الميكروفون وتكلمت في الإذاعة الداخلية والفرحة تكاد تقتلني:

-"خرجنا من منطقة الخطر بسلام، مبروك يا رجالة".

هذه المرة ارتجت جدران الغواصة بأصوات الفرح والتهليل التي استمرت فترة طويلة ولم تتوقف إلا لثوانٍ عندما قلت لهم:

-"استعدوا للخروج من الهاتش علشان نشم شوية هوا".

عاد التهليل أكثر من السابق، هؤلاء الرجال يعتبرون استنشاق بعض الهواء النقي أكبر مكافأة لهم على عمل يشبه الهبوط على القمر.

أعطيت الأوامر بالصعود والتوقف لشحن البطاريات، وطلبت المخزنجي وأخبرته بأن يعطي كل مدخن علبة سجائر هدية ويكتب سعرهم بالدفتر على حسابي، صعدت لسطح الغواصة التي تراص عليها العشرات يتحدثون ويدخنون وبعضهم يكتفي بالجلوس والنظر للسماء وقت الغروب.

وقف الجميع احترامًا لي، وبعضهم يردد كلمات الشكر، فطلبت منهم العودة للاستمتاع بتلك اللحظات، واخترت لنفسي مكانًا خاليًا، جلست فيه أستمتع بهذا الانتصار الذي لن يسمع أحد به في الغالب خارج سلاح الغواصات.

وقف بجانبي (مصطفى) و(إبراهيم) الذي غطت اللصقة الطبية نصف وجهه، والاثنان يدخنان السجائر:

-"تسمح نقعد جنبك يا فندم؟"

-"الله .. دا انتوا اتصحابتوا بقى .. اقعدوا".

جلسا بجانبي و(إبراهيم) يقول:

-"دا (مصطفى) طلع من (غيط العنب شرق)، جنبي على طول".

ابتسمت لهما وأنا أخرج سيجارة من علبة السجائر وأشعلها بعود ثقاب و(مصطفى) يقول:

-"بس كانت ضربة معلم يا قومندان، تسلم إيدك".

-"تسلم ايديكوا انتوا، لولا تعبكم مكناش عدينا من وسط ولاد الهرمة دول".

نظرت بعدها أمامي وأنا أستمتع بدخان السيجارة و(مصطفى) يقول:

-"بس تعرف يا فندم احنا حربنا مش مع إسرائيل".

نظرت له مضيقًا عيني فأسترسل في الكلام:

-"أمريكا هي اللي بتدي إسرائيل السلاح عشان تحاربنا، والسوفييت بيدونا احنا كمان السلاح عشان نحارب إسرائيل،

حاسس إننا زي العرايس اللي بيحركونا علشان نخش الحرب بدالهم".

لم أعرف ماذا أقول، كل ما استطعت فعله هو تغيير دفة الحديث:

-"انت درست إيه يا (مصطفى)؟"

-"أنا سياحة وفنادق يا فندم، واخدها من القاهرة بس عشان اتولدت هنا تجنيدي جالي هنا".

-"علشان كدة دخلت مطبخ".

قلتها بلهجة تقريرية لأغلق الحديث لكن (مصطفى)، قال بتأثر:

-"كنت رقيب طوربيد في أول 7 شهور، بس نقولني للمطبخ فجأة، يمكن علشان شافوا إن بتاع السياحة والفنادق مينفعش إلا في المطبخ".

نظرت أمامي ولم أرد عليه فقال (إبراهيم) وهو ينهض ويسحب معه (مصطفى):

-"نسيبك بقى يا فندم".

ابتعدا وأنا أنظر لهما مبتسمًا، ربما كان في كلمات (مصطفى) شيء من الصحة، أمريكا والاتحاد السوفيتي يتعاملون معنا

كفئران تجارب لقوة أسلحتهم التي لم يستخدموها في معركة حقيقية، ونحن نفرح بهذا وننجر للفخ أكثر وأكثر. بعد قليل نسيت أو تناسيت تلك الأفكار وأنا أعود لداخل الغواصة ثانية.

***

-"قربنا من مينا حيفا".

قالها ضابط الملاحة فأمرت بالغطس واتخاذ سرعة متوسطة. دلفت بعدها لكابينتي الشخصية لأفتح الظرف الثاني الذي خط فوقه: (مهمة2)، وجدت به خرائط مفصلة للميناء والأرصفة وبعض نسب الأعماق وأماكن المدفعية الساحلية، وتكليف جديد برصد حركة دخول المدمرات ومكوثها وأماكن الصيانة وحركة لنشات الطوربيد والصواريخ وطلب تفصيل عن كل ما يخص لنشات الصواريخ المسماة (سعر) التي صنعتها (إسرائيل) وأخفت كل ما يخصها، مع التنصت على لاسلكي القاعدة البحرية القريب من الميناء وتسجيل كل ما يرسله أو يتلقاه. المهمة تنتهي بعد 22 يومًا.

طلبت (يحيى) وبعض مساعدي لدراسة أنسب الطرق للدخول للميناء، اتفقنا على الخطة وبدأت التنفيذ.

غطسنا إلى عمق 50 مترًا، واقتربنا من الميناء بشدة، ثم رفعت بيرسكوب الغواصة أراقب حركة الأرصفة تحت الأضواء الكاشفة الصادرة من داخل الميناء نفسه.

هنا طلبت من الكثير من الجنود والضباط أن يأتوا ليشاهدوا الميناء من البيرسكوب كي يكتسبوا ثقة أعلى بقدرتنا على المكوث داخل أرض العدو وتحت عينه وبصره بلا أن يتم اكتشافنا.

زاد حماس الجميع ومن رأى حكى لمن لم ير عما شاهده بفخر، فانتشرت الفرحة بينهم.

نفذنا المهمة بكل ثبات، وكل يوم نخرج بعيدًا عن الميناء لترتفع الغواصة لسطح البحر كي يتم شحن بطاريتها ويخرج الجنود والضباط للسطح يدخنون بثقة وكأنهم ملكوا البحر كله بما نقوم به.

أعتقد أن الشعور لا يكفي لوصف القوة الهائلة التي انتابتنا في تلك الأيام، فهم الجميع أن أسطورة دفاعات (إسرائيل) البحرية كانت مجرد ثرثرة فارغة، وأنها دولة تشق طريقها ببطء في حروب البحر، بل إننا نتفوق عليها بخبرة قديمة في هذه المنطقة بالذات.

انتهت مهلة المهمة وابتعدنا عن ميناء (حيفا) وعدنا لطريقنا مرة أخرى لميناء الإسكندرية، وقبل أن نصل للمياه الإقليمية بقليل "جاءني (يحيى) جريا يقول:

-"العريف (طه) لقط حد بيبعت نبضات (الإزدك)".

التقاط نبضات إزدك مرسلة تعني أن هناك قطعة بحرية معادية اكتشفت وجودنا، أمرت باتخاذ مراكز قتال ورفعت

البيرسكوب، في نفس اللحظة "جاءني خبر بأن قطعة بحرية قطعت مسافة كبيرة وأصبحت في وضع اشتباك.

على البيرسكوب رأيت لنش طوربيد إسرائيليًا، أمسكت الميكروفون واتصلت بإبراهيم أخبره بتجهيز أنبوب الطوربيد للإطلاق.

ظهر اللنش أمامي على البيرسكوب ورأيت الخط المميز الذي يتركه ذيل الطوربيد يتجه ناحية الغواصة، لا وقت للغطس السريع، فاللنش سيستخدم قنابل الأعماق قبل أن يتم الغطس.

لا حل سوى المناورة من الطوربيد، قال (إبراهيم) فجأة في اللاسلكي:

-"فوهة أنبوب الطوربيد مش راضية تفتح من عندي".

يجب أن يمتلأ أنبوب الطوربيد بالماء كي يعادل الضغط داخل الأنبوب حتى ينطلق الطوربيد لهدفه، وباب فوهة الطوربيد الملاصق للمياه إن لم يفتح وانطلق الطوربيد ينفجر داخل الغواصة.

-"حاول بأي طريقة، شد جامد".

قلتها بسرعة ثم أعطيت أوامري بإدارة دفة الغواصة بسرعة مع الانخفاض 5 أمتار، راقبت الطوربيد وهو يقترب أكثر وصوت (إبراهيم) يأتيني مفزوعًا:

راضية يا فندم، أنا هاخرج الطوربيد".

جاء مع صوت (إبراهيم) صوت آخر يقول عبارة:

-"اسمع كلامي".

مر الطوربيد من فوق الغواصة تمامًا ونحن نسمع صوت رفاسه، بينما أصرخ أنا في (إبراهيم):

-"اتصرف".

اقترب اللنش أكثر وطوربيد جديد يشق البحر متجهًا لنا، لكنه لن يستطع إصابتنا لانحرافه منذ انطلاقه، المشكلة أن اللنش سيستخدم قنابل الأعماق الآن.

أعطيت أوامر بالارتفاع والاقتراب من السطح مع تحريك مقدمة الغواصة بدرجة معينة، فجأة ارتفع صوت (إبراهيم) يقول بنبرة غريبة:

-"الطوربيد جاهز للإنطلاق يا فندم".

حسبت السرعة التقريبية للنش وطلبت توجيه الدفة لنقطة سيكون عندها اللنش بعد 10 ثوانٍ.

-"أطلق".

جاء صوت (إبراهيم) بنفس النبرة الغريبة التي تشبه البكاء يقول:

-"تم الإطلاق".

توقف الزمن وأنا أتابع اللنش في مساره، حاول قائد اللنش أن يبطئ السرعة ليقوم بمناورة لهرب من الطوربيد لكن سرعته كانت أزيد من أن يتم الأمر كما حاول، اصطدم الطوربيد، وارتفعت ألسنة اللهب والدخان إلى عنان السماء، مع الكثير من الانفجارات داخل اللنش، في الغالب؛ لأنه يحمل قنابل الأعماق والطوربيدات، صرخت أنا:

-"تم تدمير الهدف المعادي".

هلل الجميع وتسارع الضباط داخل الكابينة لمشاهدة الحطام من البيرسكوب، أعطيت تعليمات الاتجاه لداخل مياهنا الإقليمية، وأنا أمسح العرق الغزير الذي تكون على جبهتي.

بقيت ساعات قليلة على العودة للميناء، طلبت مسحًا راداريًا جديدًا لأتأكد من عدم وجود قطع بحرية قريبة.

تذكرت صوت (إبراهيم)، فذهبت لغرفة الطوربيد مرورًا ببعض الجنود الفرحين، فتحت باب الغرفة ودخلت لأجد (إبراهيم) يقف مستندًا على أنبوب الطوربيد يبكي.

سمع خطواتي فنظر لي محاولًا تمالك نفسه وهو يصلب قامته:

-"إيه اللي حصل؟"

من وسط دموعه قال بصوت متهدج:

-"(مصطفى) كان واقف معايا قبل الاشتباك، ولما طلبت مني تجهيز الطوربيد الباب الخارجي علق، حاولت كتير لحد ما قالي إنه لازم يدخل جوه الأنبوب ويزق الباب برجله علشان التروس معلقة ومحتاجة حد يضغط عليها من جوه".

توقف ثواني ليأخذ أنفاسه ثم أكمل:

-"رفضت لكنه صمم وفتح الباب ودخل ومعاه الطوربيد، أنا حركت الباب من عندي وانفتح فعلًا لحد ما الأنبوب اتملى مية وأطلقت زي ما أمرتني"

جلست على الأرض مستندًا للحائط بظهري، كيف حدث هذا؟! كيف ضحى بنفسه بهذه الطريقة الشنيعة، وضعت رأسي بين كفي أحاول كتم مشاعري، ما الذي سأقوله لأهله؟ وكيف سأنقل الخبر لزملائه؟!

نهضت بصعوبة وقلت:

-"متقولش لحد من زمايلك على اللي حصل لحد ما نرجع المينا".

تركته مغادرًا الغرفة لكن (إبراهيم) قال:

-"لو سأل عليه حد؟"

-"محدش هايلحق يسأل، الفرحة هاتنسيهم كل حاجة".

غادرت الغرفة وعدت لكابينة القيادة أتابع إحداثيات الوصول، مرت ساعة لاحظ بعدها (يحيى) وجومي:

-"مالك يا قومندان؟"

-"مفيش، مركز علشان الرجوع".

-"طب ما تخش تريح و..."

قطع جندي أتى لاهثًا عبارته وهو يقول:

-"يا فندم فيه حاجة غريبة بتحصل في الغواصة".

نظرت له مستفسرًا ليكمل كلامه:

-"أنا وزمايل كتير ليا شوفنا حد ظهر لينا لابس لبس المطبخ".

خاطبه (يحيي) بعصبية:

-"فين المشكلة يعني؟"

-"اختفى فجأة".

-"نعم يا خويا؟"

لم يتكلم الجندي ونظر أرضًا وهو يقول:

-"كل واحد فينا شافه يا فندم، بيظهر ويختفي فجأة وفي كل مكان، ولو حد كلمه ميردش".

نهضت أنا وأمرته بالانصراف، قمت بالمرور على العنابر والغرف أنظر الجنود، لأول مرة منذ خرجنا في مهمتنا أرى الفزع يرتسم على وجوههم، لم أتكلم ولم يتكلم أحدهم أيضًا.

عدت لكابينتي الخاصة أجلس على الفراش الضيق عندما شاهدت (مصطفى) يدخل من الباب مبتسمًا.

شهقت وأنا أرمش بعيني لأتأكد مما أرى، فتح فمه وقال:

-"شكرًا على الفرصة".

اختفى فجأة من أمامي كأنما لم يكن.

***

اقتربت الغواصة من حوض الميناء، وقد خرج جميع من بها إلى السطح، شعرت بأنهم يهربون من المكوث داخلها ورؤية (مصطفى) يتحرك بينهم، وقف على الميناء رئيس الشعبة وقائد البحرية والعديد من اللواءات والخبراء السوفييت يلوحون لنا.

وسط الواقفين على الغواصة وجدت الطباخ الرئيسي للسفينة، فناديته وقلت:

-"عايز منك عنوان بيت (مصطفى) المساعد بتاعك علشان عايز أزور أهله"

رفع الطباخ حاجبيه دهشة وهو يقول:

-"مكنش عندي مساعد في المهمة دي يا فندم، (مصطفى) مين؟"

-"مصطفى عرفة".

تأمل الطباخ في وجهي لثوانٍ قبل أن يقول:

-"لو حضرتك تقصد (مصطفى) اللي اتنقل من جندي طوربيد للمطبخ فده مات على الغواصة دي السنة اللي فاتت لما انفجرت أنبوبة الغاز في المطبخ .. الله يرحمه".

***

تمت

في حضرة الجان

الصفحة 38 فاضية اللي فاتت .. متفكرش كتير
jűşť łęgęñđ

إهداء

إلى روح تلك الجدة التي حملت حفيدها الرضيع كثير البكاء أمام مقام (سيف الدين المغربي)، أتذكرك في كل وقت.

سألتهم إلى أين؟ فقالوا: إلى بيت الله، إلى
جوار الله، إلى الله، وهم لا يعلمون بأن الله
معهم ومنهم وفيهم.

(درويش مجهول)

1

2005

الثانوية العامة مؤلمة، يتوقف عندها الزمن ويسير كل شيء ببطء، وخاصة المذاكرة التي أكرهها، لست وحدي الذي يكرهها بل الجميع كذلك، اللهم إلا فئة قليلة مصابة بالتخلف العقلي من زملائي الذين يسيرون بحركة آلية ويتكلمون بشكل عجيب عنها، يعشقونها.

إن كان البعض يطلق عليهم الدحيحة فأطلق عليهم الفضائيين، وهم يطلقون علينا البلطجية، يروي كل منا على الفريق الآخر الأساطير، وكل منا يتوقع للثاني نهاية مأساوية عقابًا له على غبائه.

حتى أننا نطلق على بعضنا أسماء ساخرة، ولذلك علق بي الاسم الذي أطلقه علي أحد هؤلاء الدحيحة - الذي ضربته قديمًا - وإن كان اسمًا غريبًا فلم أشغل بالي به وقتها، لكنه علق بي حتى أصبح اسمًا مشهورًا يتحدث عنه الجميع بفخر عند ذكر إحدى معاركي مع طلاب المدارس الأخرى .. (مصطفى شاورمة).

أطلق علي لقب (شاورمة) لأنني كنت أكلها يوميًا بانتظام من أيام الإعدادي، ولأننا كنا زملاء في نفس المدرسة الإعدادية وانتقلنا جميعًا لمدرسة القناطر الثانوية فقد خرج علي هذا الاسم وردده الجميع في البداية بسخرية ثم أصبح أهم من اسم والدي الحقيقي.

أما بقية شلتي فتنوعت أسماؤهم التي أطلقها عليهم الدحيحة بين (حمادة صرصار) و(محسن نملة) و(طه ضاضا).

عندما وصلنا للصف الثالث أصبح طلاب الصف الأول دائمي ذكر معاركنا مع المدارس الأخرى، وأسماؤنا تجري على ألسنتهم كأنهم يرون قصص (أبو زيد الهلالي) و(علي الزيبق).

مرة يقول أحدهم: إن (محسن نملة) قفز لسور المدرسة المجاورة في فترة الفسحة وهو يحمل (سافوريا)، وفي رواية أخرى سيف حقيقي، وأخذ يضرب بعض من تحرشوا بحبيبته عند موقف السيارات، حتى أنه أصاب عشرين فردًا وفي بعض الحكايات الأخرى أصاب ثلاثين من الطلاب وخمسة من المدرسين.

ومرة حكى أحدهم أنه شاهدني أدخل مكتب تصوير بقرية (شلقان) وأحطم كومبيوتر بضربة من يدي العارية، ثم أحمل صاحب المكتب وأحشر رأسه بين ماكينة تصوير لأنه يدين لي بعشرة جنيهات.

كنا نسمع بحكمة وشموخ ولا نعلق بالنفي أو الإيجاب تاركين شهرتنا تزداد، حتى ولو كانت كلها من نسج خيالهم، لكن من ذا الذي يرفض دعاية مجانية تجذب الفتيات وتكسبه الهيبة بين الجميع؟!

برغم هذا فقد تعاركت كثيرًا، ليس بتلك الطريقة الأسطورية التي أوصف بها بالطبع، وانتصرت كثيرًا لأحمي سمعتي كي أظل مصنفًا وسط أقوياء مدرستنا.

وكي تظل تلك الهالة المخيفة حولي تبعد عني هؤلاء الفضائيين وتذكرهم دائمًا بخيبتهم في خوض المعارك.

كما هي الحياة الواقعية في تصنيف الأقوياء والضعفاء نفوذًا كانت مدرستنا تعتمد على هذا التصنيف، إلا من بعض الحالات الشاذة، مثل صديقي الذي لا أتحدث معه كثيرًا (صالح).

ينتمي للفضائيين بمشيته المهتزة الخجولة، ونظرته الدائمة للأرض، وملابسه المهندمة التي لا تدل على غنى، لكن تدل على نظافة واهتمام زائد.

كل من في المدرسة يعرف أن (صالح) في حمايتي الشخصية، منذ أن رأيته لأول مرة في الصف الأول الثانوي وشعرت بضعفه وخوفه ممن حوله، وقد قررت أن أزيح عنه ألسنة

شلتي ويد كل من تسول له نفسه أن يتعارك معه، لم يعجبه هذا الشعور من البداية، شعور يؤكد ضعفه واعتماده على قوتي.

لكنه لم يعترض في نفس الوقت على من يشبهه، أطلقنا الأسماء الكوميدية على الجميع إلا هو، من فكر في نعته باسم ضاحك جعلته يبتلعه مرة أخرى، من تخيل استطاعه ضربه قتلت خيالاته في مهدها.

سألني الكثير سبب هذه الحماية الخاصة برغم أنني لا أتبادل معه إلا السلام أو عبارة على الأكثر كل بضعة أيام، فكان ردي الدائم:

-"عشان واد طيب بجد، ميستاهلش يتبهدل".

لكن لم تكن تلك الإجابة الحقيقية، حتى الحقيقة لم أتبينها تفصيلًا سوى أنني أفعل ذلك مكفرًا عن ذنب تجبري مع بقية من هم على شاكلته، وربما لأنني كنت مثله في المرحلة الابتدائية أتعرض للتحرش والضرب والإهانة قبل أن أختار الترقي لفئة المعتدين في الإعدادية.

وربما كنت مثل من يرتكب الذنب ثم يتوقف عنه عند سماع الأذان، ويعود لتكملته بعد انتهائه عسى أن يُغفر له في يوم من الأيام.

المهم أنني لم أكن أعرف عنه سوى اسمه، ومكان إقامته في منطقة (باسوس) التي لم أزرها إلا متعاركًا مع أحد قاطنيها، لكني أعرف شوارعها جيدًا؛ لأنني أسكن بالقرب منها مسافة نصف ساعة، بقرية (الخرقانية).

قبل الامتحانات بشهر ساد عرف بين الطلبة أن يحاولوا التغيب عن الحضور للتفرغ للمذاكرة وللحفظ في منازلهم، المنتمون لفئة (الأدبي) مثلي لا يحضر أحد سوى أنا وشلتي لنهرب بعد بدء اليوم الدراسي ونذهب للقهوة أو للعب، أما فئة (العلمي) فيحضر القليل وكان من بينهم (صالح) للمراجعة مع المدرسين.

مر أسبوع ولم أر (صالح) صباح كل يوم في الطابور، اليوم لاحظت وتذكرت مرور الأيام، قبل صعود الطابور سألت أحد الفضائيين عنه فأجابني باحترام أنه تعرض لحُمى ويلزم الفراش من فترة.

طلبت رقم هاتفه المحمول فعرفت أنه لا يحمل واحدًا .. بعد صعودنا للفصول دخلت لفصله وسألت الجميع عن هاتف منزله حتى أخبرني أحدهم فسجلته على هاتفي المحمول.

قضيت يومي مع الشلة على أحد المقاهي، نشاهد المصارعة التي كانت تذاع في ذلك الوقت بكثرة وندخن معسل السلوم،

ذهبنا بعدها لدرس تاريخ، ثم تبعناه بدرس لغة إنجليزية، وفي النهاية انفصلت عنهم عائدًا لمنزلي لأكل.

طلبت (صالح) على الهاتف فردت علي أمه:

-"ممكن أكلم (صالح)؟"

-"مين معايا؟"

-"أنا (مصطفى) زميله في المدرسة".

-"أهلًا يا حبيبي، معلش هو تعبان ولسة نايم من شوية".

-"طب ممكن أجي أزوره في البيت؟"

تهللت أسارير أمه وهي ترد علي:

-"تشرف يا حبيبي، تعالى في أي وقت دا أكيد هايفرح أوي".

-"طب أنا هاكون عنده قبل العشا، بس أنا عارف المنطقة لكن معرفش بيته فين بالظبط؟"

-"تعرف أول البلد؟"

-"آة".

-"اسأل على صيدلية د/محمد، احنا في نفس البيت الدور التالت".

-"شكرًا لحضرتك".

أنهيت المكالمة وأنا أقول لنفسي: ما الذي جعلني أتهور وأنوي زيارته؟ كان يكفي الاتصال، لكن لساني تحرك من تلقاء نفسه ليوقعني بذلك، تناولت طعامي وأنا أخطط للذهاب إليه، وإلغاء كل ما كنت سأقوم به الليلة مع أصدقائي.

نزلت من المنزل واشتريت خمسة سجائر كيلوباترا لتكفي ليلتي، وجدت ميكروباص ينادي على (باسوس) فقفزت داخله في ثوانٍ.

بمجرد وصولي بحثت بعيني جيدًا عَلِّي أعثر على فاكهاني، سرت قليلًا حتى وجدته لأحضر بعض الفاكهة لصالح، ما دمت سأقوم بواجب الزيارة فيجب أن يكون مكتملًا.

بعد دقائق كنت أقف في الطابق الثالث بمنزل (صالح) أنظر لأي شقة سأطرق بابها.

جربت حظي بإحداها فكانت شقة (صالح)، طالعتني أمه مبتسمة بعدما عرفت أنني من كنت أحدثها هاتفيًا:

-"اتفضل يابني، ثواني أندهولك، ليه كلفت نفسك بس؟"

قالتها بنبرة ودودة وهي تشير لي لأدخل لغرفة الصالون، جلست على الأريكة أتأمل صورة كبيرة علقت لرجل يشبه صالح، وشريطة سوداء تزين جانبها، لم أكن أعرف أنه يتيم الأب مثلي!

لم تمر ثوانٍ حتى وجدت (صالح) يخرج من الغرفة وهو يفتح ذراعيه مرحبًا بي بحرارة لم أتوقعها:

-"نورتني يا (مصطفى)"

قالها وهو يحتضني بود، ربتُّ على ظهره وأنا أقول مرتبكًا:

-"ألف سلامة عليك، صحتك عاملة إيه دلوقتي؟"

أجلسني وجلس على مقعد قريب وهو يقول:

-"بقيت كويس لما شوفتك".

-"الحمد لله".

دخلت أمه قائلة:

-"تحب تشرب شاي ولا حاجة ساقعة أحسن؟"

-"لا يا ماما أنا هاخد (مصطفى) وننزل".

ابتسمت الأم وهي تقول:

-"بسم الله ماشاء الله يا (مصطفى)، دا (صالح) الدم رجع لوشه والعيا خرج من جتته لما شافك".

نهض (صالح) وهو يقول:

-"ثواني هاغير وأجيلك".

خرج الاثنان وأنا أرفع حاجبي من الدهشة، هل الحمى أخذت بعقله لهذه الدرجة؟ إنه يعاملني كأنني صديق قديم أفتقد وجوده، لم أكن موجودًا في حياته من الأصل، أو ربما لم أتوقع أن يأنس بوجودي بهذه الطريقة.

دقائق وعاد يرتدي قميصًا وسروالًا، وقد صفف شعره والابتسامة الودودة لم تفارق فمه! نادى على أمه قائلًا:

-"احنا هانقعد على القهوة شوية ونروح بعديها للشيخ (مرزوق)".

جاء صوت أمه يقول:

-"براحتك يا حبيبي".

لم أتخيل أن يجلس مثلي على المقهى، ولم أتوقع أن يخبر أمه بهذه البساطة! أنا وأصدقائي من رابع المستحيلات أن يعرف ذوونا بجلوسنا على المقهى، هل أحلم؟

***

2

نزلنا نسير بين الحارات والشوارع التي امتلأت بالمصانع وهو يلقي السلام على بعض الجالسين من آن لآخر فيردون عليه بأدب واحترام، حتى قال لي:

-"تعرف إن انت الوحيد اللي سألت عليا من المدرسة".

-"بس زمايلك في الفصل عارفين، دول هما اللي قالولي".

-"عارفين بس مشغولين في المذاكرة".

-"الله يكون في عونهم".

قلتها ساخرًا، لكن بلا أي تعبير على وجهي، لكنه ضحك وقال:

-"الندالة علامة مسجلة".

نظرت له وبطأت في السير أتأمله، لألاحظ الفرق لأول مرة، طريقة حديثه ومشيته مختلفة عن طريقته في المدرسة، يسير واثقًا مرفوع الرأس متحدثًا ببساطة.

-"ما انت بتهزر زينا أهو يا (صالح)، أمال مالك قافش في المدرسة كدة ليه؟"

ضحك بصوت عالٍ وقال:

-"مش عارف، يمكن علشان بنكسف من تظرات البنات في المدرسة، أو علشان باحس إني مجبر على أني أكون الولد الشاطر علشان مستقبلي، أو يمكن مبحبش المدرسة أساسًا".

توقفنا عند مقهى يخرج مقاعده على الطريق، خرج من داخله القهوجي يصافح (صالح) بحرارة ويسأله عن مرضه، رفع بعض الجالسين على المقاعد أيديهم تحية له أيضًا وهم ينادون على اسمه يسبقه كلمة (أستاذ) وهو يرفع يده محييًا كلًّا منهم باسمه.

شعرت بتبدل الأدوار بيننا كأنه هو الشاب الضائع، وأنا الخجول الدحيح أو الفضائي الذي يشعر بعدم الارتياح بوجوده وسط الفاسدين.

جلسنا على مقعدين وأنا أقول:

-"بقى انت مبتحبش المدرسة! أمال أنا أبقى إيه؟"

أخرجت سيجارة من جيبي بارتباك وأنا أقول:

-"هاشرب سيجارة، ولا هاتتضايق من الدخان؟"

-"اشرب براحتك".

ابتسمت وأنا أشعلها بعود ثقاب وأقول ساخرًا:

-"تاخدلك نفس؟"

-"مبدخنش سجاير، لكن بشرب معسل".

نادى على القهوجي وهو يخبره بأن يحضر معسل القص.

-"هي دي الكاميرا الخفية ولا إيه؟"

قلتها والدخان يخرج من فمي كشلال بعدما فتحته مندهشًا.

-"هاتشرب إيه؟"

طلبت شاي واكتفى هو بالمعسل.

-"إنت بتشرب شيشة كدة عادي؟ طب مش خايف في البيت يعرفوا عندك؟"

-"ماما عارفة"

-"نعم ؟"

جاء القهوجي بالشيشة فوضع (صالح) المبسم بفمه وجذب بضعة أنفاس بتركيز واسترخاء وأنا أشاهده كأنني طفل يرى عملية التدخين لأول مرة، بينما قال هو ببساطة:

-"أمي قالتلي زمان لو فكرت تدخن قولي، بلاش أعرف من حد غريب، فلما جربت الشيشة من سنة وعجبتني قلتلها على طول".

-"طبعًا أكلت العلقة المتينة".

-"لا خالص، قالتلي إني مشربش أكتر من مرة في الإسبوع ولو زاد أوي أشرب مرتين وأقولها، ومن ساعتها وأنا بشرب كل إسبوع مرة بانتظام"

-"إنت بتهزر؟"

-"بتكلم بجد والله، إيه المشكلة يعني؟"

جاء القهوجي بالشاي، فجذبت نفسًا من السيجارة التي نسيتها وقلت بخيبة أمل:

-"أنا بصراحة كنت فاكرك أحسن مني وعندك إرادة إنك تبطل الدخان".

-"محدش أحسن من حد، ومين قالك إني عايز أبطل؟ أنا مستريح كدة، هو انت مش مستريح وانت بتشرب سجاير برضه؟"

نظرت للسيجارة ثم له وأنا أقول:

-"مش عارف".

-"مش عارف؟ أمال بتدخن ليه؟"

ما هذا السؤال؟ كيف لم أفكر: هل أستمتع بالتدخين أم أدخنه لتسلية الوقت فقط؟ اتخذت فجأة موقف المهاجم وأنا أقول:

-"بس الدخان غلط".

ابتسم وهو يسحب نفسًا طويلًا وصوت قرقرة الشيشة يعلو ثم أخرج النفس براحة وهو يقول:

-"كل لحمة كتير يجيلك نقرس، اشرب بيبسي كل يوم تدخل في هشاشة العظام، كل شوية فراخ مقلية مع بطاطس محمرة وانت يجيلك القلب .. العب رياضة كل يوم ومتدخنش وابعد عن الستات وفي الآخر يجيلك سرطان الرئة صدفة .. الحاجات في الدنيا نسبية يا (مصطفى)، انت لازم تعمل كل حاجة بتحبها بس بعقل، يعني لو السيجارة اللي في إيدك مش مريحاك ارميها، أما لو عايزها فاشربها باستمتاع ومتنفخش الدخان على الفاضي".

كلماته ضربت منطقي البدائي في مقتل، قلت عبارة ليس لها معنى:

-"بس برضة الدخان غلط".

-"ما كلنا بنغلط، دا احنا بشر ولا إيه؟"

انتهت السيجارة من يدي فرميتها وأنا أفكر في مبدئه الغريب، حتى "جاءني رد يمكنني مواجهته به فقلت متحفزًا:

-"إنت كنت بتقول لو بعدت عن كل حاجة ممكن يجيلك سرطان الرئة صدفة، بس ساعتها مش هاتكون صدفة، أكيد ربنا هو اللي عمل فيك كدة علشان إنت عملت مصيبة".

-"متدخلش ربنا في الأمراض، احنا اللي بنجيبها لنفسنا واحنا اللي بنعالجها، ربنا أعلى من إنه يبعتلك مرض علشان ارتكبت ذنب، الذنوب حسابها في الأخرة، أما الدنيا فلها معادلتها".

بصراحة لا أعرف لما صرخت فيه:

-"أستغفر الله يا أخي، إنت بتقول كلام كفر كدة، إنت متعرفش إن كل حاجة بتعملها هاترد لأهلك، لو عاكست واحدة اختك هاتتعاكس، لو زعقت في أمك ابنك هايزعق لمراتك لما تكبر".

ابتسم وهو يسحب الأنفاس ويقول بهدوء:

-"مش بقولك إحنا كدة بندخل ربنا في حاجات غريبة، (لا تزر وازرة وزر أخرى)، يعني انت مقتنع إنك لو اغتصبت واحدة يبقى أختك حد هايغتصبها؟ طب اختك ذنبها إيه؟ وازاي هاتتحاسب على الاغتصاب ده يوم القيامة؟"

-"انت بتجيب الكلام ده منين؟"

قلتها غاضبًا فرد:

-"من شيخي".

-"شيخك؟ انت بتدرس الدين؟"

-"مش بالظبط، بس كل مريد من الصوفية ليه شيخ".

-"يعني إيه صوفية؟"

-"دا حوار كبير أوي".

-"طب والشيخ ده بيفتي على أساس إيه؟"

-"لا هو ما بيفتنيش، هو بس بيرشدني للدخول في التصوف وأنا بأدور لوحدي على الإجابات".

-"لا مؤاخذة بس كلامك يضحك".

قلتها وأنا أخرج سيجارة أخرى، ثم فكرت أنني لا أشعر باحتياج لها فعدلت عن الفكرة، بينما قال هو:

-"طب تعرف بقى إن شيخي زارني امبارح في البيت وقاللي إن النهاردة هايزورني قبل صلاة العشا إنسان طيب جدًّا وصديق مخلص وطلب مني أجيبه معايا لحضرة هايعملها النهاردة بعد الصلاة".

اهتززت لثوانٍ من تأثير كلماته وقلت مشدوهًا:

-"انت بتتكلم بجد؟"

-"صدقني أنا نفسي اتخضيت لما جيت ومكنتش مصدق نفسي".

-"وإيه اللي عرفه؟"

-"فيه حاجات مبنعرفش سبب ليها، يعني انت امتى قررت تزورني؟"

-"النهاردة".

-"واشمعنى اخترت النهاردة بالذات؟"

-"صدفة .. لكن مش ممكن يكون شيخك عارف معاد زيارتي، دي تخاريف".

سمعنا صوت المؤذن يؤذن للعشاء فقال (صالح) وهو يترك الشيشة وينهض:

-"هاصلي العشا في مسجد قريب، مش هاتأخر عليك".

كيف لم يطلب مني الذهاب معه؟ هل يخشى إحراجي؟ أم يتوقع أنني لن أصلي؟

-"أنا جاي معاك".

نهضت واستعددت لأحاسب لكنه أخبرني بأننا سنعود، ثم أخبر القهوجي أن ينتظرنا، لم أملك إلا أن أتبعه، وأنا أحاول تذكر آخر مرة دخلت فيها المسجد بإرادتي لأصلي غير صلاة الجمعة التي أحضرها في آخر خمس دقائق.

خرجنا من الحارات الضيقة إلى شارع رئيسي يطل على ما اعتقدته بحرًا، لكن علمت من (صالح) إنه امتداد للنيل، سرت معه على حافة الشط أرى المياه بجانبي بلا سور أو فاصل.

مررنا بزاوية صغيرة كنت قد تأهبت لدخولها معه، لكنه أكمل طريقه صامتًا! سرنا حتى وصلنا لمسجد صغير يشبه الزاوية، لكنه حمل بعض الزخارف البسيطة، كان المسجد يبتعد أمتار عن شط النيل لكني لمحت على الشط مبنى غريب لم أر مثله من قبل.

مبنى مربع التصميم تعلوه قبة، امتلأت بزخارف، حفر داخلها اسم بالرسم العثماني، لم أتبين منه إلا اسم (سيف الدين)، آخر ما التقطه عيناي هو باب مفتوح لهذا المبنى وضوء مصباح يشع من داخله.

دخلت المسجد بجانب (صالح)، والحق أنني انتظرت أن أشعر برهبة ما أو خشوع، ففوجئت بفراغ مشاعري كأنني

أدخل لمنزل عادي؟ هل تبلدت مشاعري لهذه الدرجة التي لا أستشعر فيها هالة الدخول لبيت عبادة؟ أم أنني تعودت على دخول المساجد تقضية واجب عند صلاة الجمعة حتى فقدت الصلاة معناها عندي؟

توضأت وأنا أقول ساخرًا في: نفسي الحمد لله لم أنسَ كيفية الوضوء وإلا أُصبت بالحرج أمام (صالح) والمصلين.

خرجت لساحة المسجد بعدما سبقني (صالح) الذي وجدته يصافح الكثير من الشباب والرجال الذين ارتدوا ملابس موحدة عبارة عن جلباب أبيض وعمامة من نفس اللون، بعضهم يطلق شاربه، والبعض حليق اللحية، والبعض ذو لحية، إلا أحدهم الذي لم يكن مميزًا عنهم ملبسًا، غير أن الجميع كان يصافحه باحترام وأدب زائد وهو يبتسم لهم ويربت على ظهور بعضهم.

لم أر فيه شيئًا زائدًا إلا نظارة طبية عادية، ووجه تعلوه ابتسامة دائمة لا تنقطع، هل هذا هو الشيخ الذي حدثني عنه (صالح)؟

كأنه سمع أفكاري فنظر لي وركز نظراته لعيني، ارتبكت بلا سبب وحاولت الابتسام، فلم أستطع وهو يقترب مني ويقول:

-"نورتنا يا (مصطفى)".

-"شكرًا".

-"لو فاضي ياريت تحضر الحضرة معانا بعد الصلاة".

لم أجبه لكن هززت رأسي بلا معنى واضح، فهز رأسه لي محييًا، وانصرف يصافح بقية الشباب، أقيمت الصلاة فوجدته يصطف معنا ويخرج أحد الشباب ليؤمنا، لا أنكر أنني اندهشت من عدم إمامة هذا الشيخ لنا!

أديت الصلاة بجسدي فقط، وعقلي يفكر في هذا الشيخ وهؤلاء الفتية وملابسهم الموحدة، حتى أنني اختلست نظرة جانبية للشيخ أثناء الصلاة علِّي أرى في صلاته ما يميزه ليحظى بهذا الاحترام فلم أجد.

انتهينا وأنا أحاول تذكر هل سنة العشاء قبل أم بعد الصلاة؟ لو كانت بعد الصلاة لأديتها لأعفي نفسي من الحرج وسط هذا الجمع المتدين الذي يشعرني بضآلتي، لكن حتى لو كانت السنة بعد الصلاة فلا أتذكر عدد ركعاتها.

نهضت وجلست في أحد الأركان محرجًا، نهض البعض يصلي والبعض يتحدث، أشعر بالاغتراب في هذا المكان، ليتني انتظرت (صالح) في المقهى وأعفيت نفسي من شعوري الآن الذي أكسبني يأسًا من حياتي الدينية.

سمعت صوتًا منغمًا خافضًا يقول:

-"طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا".

نظرت لمصدر الصوت فوجدته أحد أتباع الشيخ جالسًا وبجانبه اثنان يستمعان له وصوته يعلو قليلًا:

-"طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا، وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجدُ".

علا صوته أكثر، ونظر له البعض وهو يتنغم بصوته الجميل:

-"وقلت يا أملي في كل نائبة .. يا من عليه في كشف الضر أعتمدُ".

تنفست روحي، لا أعلم ما معنى هذا، لكني شعرت بروحي لأول مرة وكأنها كائن حي يتنفس داخلي من هذا الصوت وكلماته:

-"أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها .. ما لي على حملها صبرٌ ولا جلدُ".

سرت ارتعاشة خفيفة بفقرات ظهري.

-"وقد بسطتُ يدي بالذل مفتقرًا إليك، يا خير من مدت إليه يد، فلا تردها يا رب خائبة، فبحر جودك يروي كل من يردُ".

هنأه البعض ومدحه الشيخ الذي نهض وسار حتى وقف أمامي، فقمت بسرعة لكنه هدأني وأجلسني قائلًا:

-"احنا هانعمل حضرة ذكر دلوقتي، اقعد واتفرج ولو حبيت تدخل تذكر ربنا معانا ادخل، المهم إنك لو نويت الذكر متحركش لسانك بس، أذكر بقلبك، دور على صوت روحك وخليه ينطق".

لم أفهم كيف أذكر بقلبي، أكره الأحاديث الفلسفية التي يتوقع الناس أن أفهمها منهم، لكني هززت رأسي بمعنى نعم وأنا أراه يبتعد عني وهو يقول لأتباعه:

-"حضرة الله يا أحباب الله".

جلس الشيخ وسط المسجد تمامًا وبعض المصلين يغادرون، والبعض اقترب من الشيخ وجلس حوله، كانت ملابسهم وأعمارهم مختلفة هذه المرة، لم يسألوا الشيخ ولم يتكلموا معه، لكنهم اتخذوا مواقعهم في شكل شبه دائري حوله وبعض أتباعه يجلسون بجانبهم مكملين الحلقة حول الشيخ بجانبهم (صالح).

نظرت فوجدت بعض الرجال يجلسون مبتعدين عن الحلقة ينظرون لها بهيبة، قال الشيخ:

-"ببركة مولانا العارف بالله سيدي (سيف الدين المغربي) ومقامه ومسجده نبدأ حضرتنا بتصفية نفوسنا، صفوا قلوبكم من زوائل الدنيا ومشاكلها وتأهبوا لحضور (سيف الدين) بينكم".

إذن فالمبنى القريب من المسجد هو مقام (سيف الدين) هذا، لكن كيف سيحضر؟ صمت الجميع وأغمض بعضهم عينه،فخطوت على ركبتي بهدوء،وأنا أقترب من أحد الرجال الجالسين بعيدًا عن الحضرة، ينظر لها منبهرًا، أعتقد أن عمره لا يتخطى الثلاثين، رآني أقترب منه وأقول هامسًا:

-"سلام عليكم، هما هايعملوا إيه؟"

همس لي وهو ينظر لهم:

-"حضرة، أنت أول مرة تيجي ولا إيه؟"

-"أنا مش من باسوس أصلًا".

-"اسمك إيه؟"

-"(مصطفى)".

-"أهلًا يا (مصطفى)، أنا أخوك (مصطفى عبد الرحمن)".

ابتسمت وقد شعرت بالألفة معه وحديثنا يدور همسًا وأنا أقول:

-"(مصطفى) برده، بصرة".

فجأة قال الشيخ:

-"نبدأ بالصلاة على المختار، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السَّنية، والرتبة العلية، من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه، وصلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت، ورزقت، وأمت، وأحييت، إلى يوم تبعث من أفنيت".

رددت الحلقة من حوله عبارة واحدة:

-"اللهم صلِّ على (محمد) وعلى آله وصحبه".

كانوا يرددون العبارة فتختلط أصواتهم بعضها ببعض، لكن الشيخ طرق بيده على الأرض فرددت الدائرة بعد طرقته العبارة، طرق مرة أخرى فرددوا مرة ثانية وانتظمت أصواتهم، كأن أصواتهم مضبوطة على إيقاع على نغمة واحدة.

ملت على (مصطفى) وقلت:

-"مين ده اللي مستنيينه يجي".

ابتسم ابتسامة أعتقد أنها ساخرة وهو يقول همسًا:

-"شوفت المقام اللي برا ده؟ ده مقام سيدي سيف، بيقولوا إنه بيحضر في حضراتهم في قلوبهم ويديهم المدد".

-"يديهم المدد؟"

-"أصحاب العقول في راحة".

انفتح فمي مبتسمًا بلا قصد وأنا أقول له:

-"طالما الناس دي فاسكونيا كدة إيه اللي مقعدنا هنا؟"

ابتسم هو أيضًا لعبارتي وقال:

-"بصراحة أنا بحب أتفرج على حضراتهم، فيه ذكر لله جميل أوي، وساعات أذكر معاهم من بعيد لبعيد".

طرق الشيخ فجأة ثلاث طرقات، فانتبهت له وأنا أراه يتنفس بعمق مغمضًا عينيه ويقول خاشعًا:

-"الله".

طرق بيده فردد من حوله:

-"الله".

أغمض (مصطفى) الجالس بجواري عينيه واعتدل ظهره وهو يردد معهم محركًا شفتيه بلا صوت، تنفست روحي للمرة

الثانية وصوتهم يتنغم في نغمة واحدة هادئة كأنهم يخرجون أرواحهم وهم يذكرون.

علا صوتهم لكنه لم يزعجني، تخيلت الحضرة كما أراها في الأفلام يصرخون ويتمايلون يمينًا ويسارًا لكني اكتشفت معنى جديدًا منهم.

هل جسدي يرتعش طربًا لهذا الصوت؟ أم أن الإيحاء قد ملأ عقلي؟ نعم أرتعش من داخلي، خاطر أخبرني بأن روحي هي التي ترتعش، تهتز، وتتنفس وكأنها تطلب الخروج.

وجدت نفسي مدفوعًا بلا إرادة إلى إغلاق عيني وترديد كلمة (الله)، نزلت عليَّ سكينة زادت من ارتعاش روحي، أصواتهم تدخل لأذني فتضغط على أوتار روحي تزيدها اهتزازًا، وفمي يتحرك لكن روحي فائرة بجسدي وهي التي تردد: (الله)، (الله).

فقدت اتزاني ومال رأسي إلى الوراء، لم أبذل مجهودًا لأعتدل، تركت نفسي مستمتعًا كأنني أغرق في بحر الأصوات، هل رأسي هي التي تميل للوراء أم روحي؟

انقبض قلبي فجأة ففتحت عيني، لست في المسجد ولا أجلس متربعًا، لكنني أقف أمام منزل من طابقين وحولي عشرات الناس بملابس غريبة!

***

3

ما هذا الجنون؟ أين الشيخ والأتباع والذاكرون؟ تلفت حولي لأرى التجمع الغريب من هؤلاء الناس الذين يرتدون الجلاليب والعمائم وأغطية الرأس الغريبة مختلفة الألوان، يقفون حول هذا المنزل يرددون كلامًا مختلفًا، ينشد بعضهم والآخر يصرخ مناديًا يقول:

-"شيء لله".

أين أنا؟ وما هذه الملابس التي أرتديها؟ جلبابًا أسود وعباءة سوداء وعمامة على رأسي!! وأنتعل حذاء غريب الشكل، نظرت للناس مرة أخرى علّي أفهم، وصوت إنشاد مجموعة منهم يأتي قويًا لأذني:

-"احذر يا صاح وكن وقرا، وخذ الميثاق على الفقرا، واسلك يا صاح بمنهجهم وبحضرتهم خيرًا سترى".

صوتهم مخيف وهو يتغنى بسرعة:

-"الزم في حضرتهم أدبا، تلقَ السادات مع الأمرا، من جملتهم شيخي البدوي ويضيء بهيبته قمرا".

البدوي؟ خرجت فتاة من بين الجموع ترتدي ملابس القرى وهي تلف طرحة سوداء على رأسها، اقتربت من المنزل بجانبي وصرخت:

-"نظرة لله يا (بدوي)".

صوت البعض يذكر الله كذكر الحضرة الذي كنت فيه منذ قليل، والبعض يأتيني صوته منشدًا متنغمًا:

-"قد جاءته امرأة وبكت، وحكت ما تم لها وجرى، قد جاءته امرأة وبكت، وحكت ما تم لها وجرى، قالت ذا ولدي يا بدوي، قد غاب وما رد الخبرَ، فعسى ولعلك يا بدوي تنجي المكروب إذا أُسِرَ"

يجب أن أتمالك نفسي، أنا أحلم بالتأكيد، ربما صدمت رأسي في المسجد، أنا الآن بغيبوبة وأحلم.

-"للشيخ انكشفت حالته، ورأه يردد منكسرًا، أتراني أعود إلى وطني، وأسر حديثًا مستترًا، وأفك حديد مسلسلة، يمناي بقيد واليسرى".

انفتح باب المنزل وخرج رجل بجلباب والناس يصرخون عليه:

-"دخلنا نشوفه يا (عبد العال)".

نظر (عبد العال) هذا لي مباشرة وهو يشير لي بالاقتراب ويقول:

-"حمد لله على السلامة، تعالى يا (مصطفى)".

اقتربت بخوف وأنا أسمع المنشدين يكملون:

-"فرأى بدويًا ملتثمًا، السهم به يرمي عشرا، وأزاح القيد وطار به، ليعود بخير منتصرا".

بمجرد أن اقتربت منه جذبني (عبد العال) لداخل المنزل، وأغلق الباب وأصوات الناس تطاردنا، تنادي (عبد العال) باسمه وتطلب لقاء البدوي! لا أعرف شيئًا عن هذا البدوي إلا أنه ولي وله مسجد بطنطا.

تأملت (عبد العال) بسرعة، له شارب ولحية وعمامة، و يرتدي جلبابًا قديمًا نظيفًا، مظهره يقول: إنه في الخمسين أو أكثر، كيف عرفني؟

-"سيدنا البدوي زعلان من اللي بيعمله الأهالي في مولد النبي كل مرة".

قالها (عبد العال) وهو يعطيني ظهره بينما أتأمل أنا حوش المنزل البسيط الذي امتلأ ببعض المقاعد الخشبية والحصير،

كان (عبد العال) يسير إلى سلم في ركن المنزل حين توقف ونظر لي قائلًا:

-"إيه يا (مصطفى) مش هاتيجي تقابل البدوي، دا مستنيك من الصبح وعمال يقولنا إنه محتاجلك".

شعرت بدوار فجأة، وألم بعيني فأغلقتهما لثوانٍ وعند فتحهما وجدت نفسي أشهق، وأنا راقد في ساحة المسجد بباسوس، وحولي الذاكرون ينظرون لي والشيخ يضرب بكفه على خدي ويقول:

-"فوق يا (مصطفى) .. مالك؟"

أردت أن أشرح أنني كنت أحلم بشخص اسمه (عبد العال) سيقابلني بالبدوي، فلم تخرج من فمي إلا كلمتان:

-"(عبد العال)، (البدوي)".

نظروا لبعضهم البعض بدهشة، اهتزت صورتهم أمامي وشعرت بالدوار، وأنني أسقط في بئر سحيقة فأغمضت عيني.

فتحتهما لأجد نفسي واقفًا و(عبد العال) ينظر لي بدهشة يدعوني لصعود السلم، كيف تم سحبي للحلم مرة أخرى وأكمله من نفس النقطة التي توقفت عندها؟ هل هذا حلم؟ أم شيء آخر؟

-"يالا بسرعة مفيش وقت".

تقدمت بخطوات مرتبكة أصعد السلم المبني من الطين حتى وصلت لنهايته لأجد نفسي على سطح كبير وقف فيه رجال متباينو الأشكال والملابس، بمجرد أن رأوني تجمعوا حولي وكل منهم يحتضني مصافحًا:

-"حمد لله على سلامتك يا شيخ (مصطفى)".

قالها الجميع بحب وعشرة كأنهم يعرفونني، سمعت صوتًا رخيمًا يقول:

-"يا (وهيب)، عد إلى (القليوبية) بعد أن تصافح المسافر، فغدًا سيقصدها قاطع طريق ليرهب أهالي (برشوم)".

نظرت لمصدر الصوت، وابتعد الجميع عني وهم ينظرون له باحترام، كان رجلًا جالسًا يسند ظهره إلى سور السطح، يرتدي جلبابًا أخضر وعمامة من نفس اللون، ويلف على وجهه لثامًا أحمر يُظهر عينيه فقط. كان يمسك مسبحة طويلة ذات حبات سوداء وعلى الحائط بجانبه ترتكن عصا غليظة.

قال أحد الرجال:

-"وأعمل فيه إيه يا أبو الفتيان؟"

يبدو أن هذا هو (وهيب)، وأعتقد أن هذا الملثم هو البدوي، قلبي يقول هذا، رد عليه قائلًا:

-"أعطه مما أعطاك الله من مال، وأكرمه قبل أن يدخل القرية، انزع من قلبه الحقد، وازرع موضعه الحب، فلو استقام حاله لأصبح وليًّا".

-"زي ما تؤمر يا سيدنا".

نظر البدوي إلى الأرض وقال:

-"فليعُد كل منكم لقريته، ولا ينتظر غير (عبد العال) و(علي الكنبراوي) والمسافر".

قالوا جميعًا في نفس واحد:

-"السلام عليك يا شيخنا".

ثم نزلوا جميعًا من السلم حتى أصبح السطح خاويًا إلا من (عبد العال) و(الكنبراوي) الذي ألقيت عليه نظرة جانبية أتأمل ملابسه الغريبة حتى على الواقفين.

-"نورت (طنطدا) يا (مصطفى)".

قالها البدوي بلين فقلت:

-"أنا جيت هنا إزاي؟ أنا مش فاهم حاجة".

نهض البدوي بخفة، وأمسك عصاه يتكأ عليها، مربطينا ظهره، ينظر خارج سور السطح للناس الذين جاءت أصواتهم بعيدة ينادون باسمه وقال:

-"أصحاب الخطوة لا يسألون عن وسائلهم".

ثم نظر إلي وقال:

-"وأنت تخطو بقلبك فيتبعك جسدك يا ولي الله".

-"أنا مش ولي، وانت مجاوبتنيش، أنا بحلم صح؟"

-"لله جند غالبون، بكل زمان ومكان، لكنهم لا يلبسون هم جند الله يغيثون عباد الله، إن خطوا خطوة طويت الأرض لهم بأمر الله".

حاولت استيعاب جملته ومقصده، هل ينحل عني كجندي؟

-"انت تعرف أنا جيت منين؟"

-"جئت من زمن الله .. من أرض الله"

-"يعني أنا مبحلمش؟"

-"الحلم هو الدنيا، والصحو هو الموت، كلنا نحلم لا نقطع اليقين إلا بموتنا".

-"لو انت البدوي فأنت ميت في زمني".

نظر (عبد العال) و(الكنبراوي) لي بدهشة بينما شعرت بالبدوي كأنه يبتسم برغم اللثام الذي يخفي وجهه، وقال:

-"إن كنت أنا ميتًا بزمنك فأنت حي في زمني".

صرخت:

-"أنا مش زي ما انت فاكر.. أنا واحد عادي".

-"أنت المختار والمصطفى، سيف سلطك الله على أعدائه، إن سلمت روحك للملكوت سبحت فيه قبل أن يقبضها ملاك الموت".

كدت أبكي وأنا أقول:

-"أنا مش فاهم حاجة، المفروض أعمل إيه دلوقت؟"

-"اختر بين أن تساعد عباد الله، وأن تعود إلى ما كنت فيه بأمر الله".

دار رأسي ككل مرة فأغمضت عيني وفتحتهما لأجد نفسي أنظر لسقف المسجد بباسوس، لقد عدت، لقد عدت، كدت أتكلم لولا أنني لاحظت شيئًا غريبًا، هل أنا قريب من سقف المسجد؟ أنام على ظهري لكني لا أشعر بالأرض من تحتي!

سمعت أصواتًا متداخلة كأنها تأتي من تحت تصرخ:

-"الله أكبر".

حركت رأسي ناظرًا ليميني فرأيت جدران المسجد، هنا اكتشفت أنني عائم في الهواء! نظرت لأسفل، فوجدت الشيخ والجميع يكبرون ويهللون فرحين وهم ينظرون إلي؟

دار رأسي فعدت واقفًا أمام البدوي على السطح، لا أستطيع السيطرة على حركة أنفاسي، تنفست بسرعة وأنا أشعر أنني كنت أعدو منذ ساعة، سمعت صوت (عبد العال) يقول:

-"دا بيسافر ويرجع وهو في مكانه يا سيدنا".

رد عليه البدوي:

-"لا يا (عبد العال)، إن روحه تائهة فقط بين الدخول في الملكوت والمكوث في الدنيا".

عبأت رئتي بالهواء وصلبت قامتي وقلت للبدوي:

-"ده مش حلم .. أنا هنا معاكم ازاي؟"

رفع البدوي إصبع سبابة يده للسماء وقال:

-"هو من يعلم سرك وسري".

-"طب أنا عايز أرجع للمكان اللي كنت فيه دلوقتي".

-"لا .. لو كنت تريد الرجوع لاخترت البقاء هناك، وما جئت لهنا ثانية، أنت في هذا المكان بإرادتك".

-"بس أنا مش عايز أقعد هنا".

-"لكن روحك تطلب البقاء فيما ترفضه نفسك".

-"والحل؟"

-"الحل أن تكسر نفسك وترضى روحك، فإني أرى روحًا تسبح بين الكون تطلب العلو، ونفسًا تغوص في الشهوة تطلب الدنو، لبِّ طلب روحك تعد لموضعك".

-"وروحي طالبة إيه مني؟"

-"أن تذهب لنجدة عباد الله".

-"انجدهم من إيه؟"

-"منذ سنين أرسلت الشيخ (عوسج المصري) أحد أتباعي إلى اليمن، وتبعه (علي الكنبراوي)، وقد علا ذكرهما هناك وأضاء الله على أيديهما قلوب العباد من سائر البقاع، لكن "جاءني أمس (الكنبراوي) بنبأ محزن".

نظر البدوي إلى (الكنبراوي) وقال:

-"أخبره بما حدث".

قال (علي) وهو ينظر لي بأدب:

-"الشيخ (عوسج) اتقتل".

-"إزاي؟"

-"من شهرين ناس من أهالي بلد اسمها (مهرة) في اليمن استنجدوا بيه لما سمعوا عن كراماته، قالوا إن فيه بير قريب منهم في أرض (برهوت) اسمه (قعر جهنم)"

اتسعت عيناي فزعًا من نطق الاسم وهو يكمل،

-"البير ده دايمًا يشموا منه ريحة وحشة ويسمعوا أصوات خارجة كأن حد بيصرخ، لكنهم اتعلموا من جدودهم ما يقربوش ليه، لحد ما تاه ابن شيخ قبيلة كان في طريقه هو وعيلته وباتوا جنب البير، من ساعتها وهو بيسمع صوت ابنه بينادي عليه من البير"

-"طب محدش رماله حبل وحاول يطلعه؟"

-"ربطوا واحد بحبل ونزلوه لكنه صرخ ولما شده طلع نصه اللي فوق بس، ورجليه ووسطه مقطوعين"

-"إيه اللي جوه البير ده؟"

-"بيقولوا إن ملك من ملوك مملكة (حمير) زمان أمر الجن إنها تبنيه علشان يحفظ كنوزه جواه، لكنه مات وفضلت الجن تحرس الكنز، وعلشان كدة استغاثوا بالشيخ (عوسج) وهو راح ونزل البير واختفى جواه، والأهالي بيقولوا إنه بعد نص يوم لقوا عفريت بيخرج من البير ليه قرون ورجل خروف

وعنين مشقوقة وشايل على كتفه جثة الشيخ، ومن بعدها البير بقى يخرج منه كل يوم حيات وأفاعي سودا وجن وعفاريت، وكل يوم يلاقوا جثة أو جثتين من أهالي (مهرة) من غير سبب".

نظرت للبدوي مفزوعًا وأنا أقول:

-"ليه حصل كل ده؟"

-"الله أعلم"

كل سؤال ألقيه على البدوي لا أجد له إجابة، ما سبب تقديس الناس له إذن ونعته بالولاية؟ كأنه سمع أفكاري قال:

-"لست عالمًا بكل شيء يا بني، أنا أحدث الناس بما يفتح الله علي، فإن لم أعرف لا أفتي".

-"وأنا أقدر أحل المصيبة دي إزاي؟"

-"إن نويت إغاثة أهل (مهرة) فسيكون مددي ومدد الأقدمين تحت طوعك".

-"وليه أنا بالذات؟"

-"أنت المسافر في رحاب الله بإذن الله".

-"وإزاي أنا جيت هنا"

-"دعوت اليوم وقلت: يا عباد الله أغيثوني، ففتح الله علي بصوت يخبرني بمجيء (مصطفى) المسافر بقدرة الله، صاحب الخطوة، عزة الدين وسيفه، روحه هي التي تقدر على رد إغاثة أهل (مهرة)، إن قبل طُوِيَ له الزمان والمكان، وإن أبى عاد من حيث ما كان".

لا يمكن أن أكون أنا الذي يتحدث عنه، أنا مجرد طالب ثانوي فاشل أقصى حلمي أن أنجح في مدرستي، ألفاظ مثل طوي الأرض والولاية وإغاثة المظلوم لم تكن بقاموسي من قبل، لقد كانت الصلاة في المسجد ثقيلة على قلبي منذ قليل، فكيف أصبح الآن من الأولياء؟

-"أرجوك يا شيخ (مصطفى) انجد الناس، انت اللي في إيدك الحل".

نظرت للأرض أحاول التفكير فلم أستطع، هل أقبل؟ وبعد أن أقبل، ما العمل؟

-"قلت لك: اقبل وسترى المدد طوع أمرك".

قالها البدوي ردًا على أفكاري، فلم أمنع نفسي من الابتسام وقلت:

-"موافق، لكن معرفش هاعمل إيه".

اقترب مني البدوي وهو يتكئ على عصاه ويقول:

-"ستذهب الآن لمقابلة (المتولي) كي تتزود لرحلتك".

-"مين (المتولي) ده؟"

-"قابلته قبلك في شبابي ليزودني في رحلتي إلى (فاطمة بنت بري)".

وقف أمامي تمامًا وأعطاني مسبحته السوداء وهو يقول:

-"إن سألك فردَّ عليه بقلبك".

أمسكت المسبحة وأنا أقول:

-"مردتش عليا؟ مين (المتولي)؟"

-"شيال الحمول".

وضع يده على رأسي وهو يقول:

-"بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، اذهب إلى مبتغاك بأمر الله".

اختفى (البدوي) والسطح وكل شيء، ووجدت نفسي في صحراء تحيطها الرمال من كل جانب وضوء القمر لا يريني أكثر مما يخفى عليَّ.

***

4

تلفتُ حولي كثيرًا وأنا أمسك المسبحة التي لا أعرف لم أعطاني البدوي إياها! يجب أن أخرج من تلك الورطة.

هل هذا منزل أم سراب؟ رأيت بقعة سوداء على مرمى بصري يخيل لي أنها منزل، سرت نحوها وأنا أسمع صوت الرياح وقدماي تغرسان في الرمل، ما هذا؟ ملامح البيت تتضح برغم الظلام المحيط به.

يعلوه قبة كقباب المساجد! لكنه لا يشبه إحداها، أكملت الخطو حتى وصلت له، بناء من خشب أو هكذا رأيت، له باب بلا مقبض!

طرقت الباب فانفتح من ضربة قبضتي، جاء ضوء صغير من داخله وأصوات غريبة كأنني أسمع حلقة ذكر بصوت خافت يشبه الفحيح، فجأة جاء صوت رخيم واضح من داخل المنزل يقول:

-"ادخل أيها المسافر".

خطوت للداخل فوجدت رجلًا ضئيل الجسد يجلس على الأرض مرتكنًا إلى الحائط، حليق الوجه ناعم الشعر يتلفح بعباءة بيضاء على جلباب من نفس اللون، وسيم الوجه، لكن عينيه الواسعتين أجبرتاني على النظر فيهما خلافًا عن بقية وجهه.

-"سلامو عليكوا".

-"عليك سلام الله يا مريد الله".

قالها الجالس وأصوات الذكر التي لا أتبين ألفاظها مستمرة في أذني، نظرت حولي أبحث عن مصدرها فلم أجد، المنزل لا يحوي أثاثًا، هناك باب غرفة مغلق وشيء يتدلى من السقف يلقي بضوء أزرق على الجالس يضيف غموضًا على غموضه.

-"بأدور على (المتولي)".

-"وما حاجتك إليه؟"

-"البدوي قاللي إني لازم أروحله قبل ما أوصل اليمن".

ابتسم الجالس وقال:

-"أما زال الملثم حيًّا؟"

-"أيوة لسة حي .. انت (المتولي)؟"

-"ومن غيري يجلس في طريق المسافرين إلى الله؟ أزودهم بالمدد ويثقلونني بالحمول".

-"قال لي البدوي: إنك شيال الحمول، يعني إيه؟"

وقف (المتولي) فجأة بسرعة فشعرت أنه أطول مما توقعت وقال:

-"لا أجيبك حتى تجيبني وتزودني بحمل جديد".

-"اسأل".

-"هل تحب الله؟"

ابتلعت ريقي وأنا أهم بالإجابة بنعم لكن توقفت أفكر، هل إجابتي حقًّا بالموافقة؟

-"مش عارف".

قلتها بنبرة صوت مرتعشة، فجأة زاد صوت الذكر الذي لا أعرف مصدره واتسعت عينا (المتولي) غضبًا وهو يقول:

-"وأنا من دعوتك بمريد الله، وأنت كالأنعام تأكل وتشرب ولا تفكر".

-"أنا جاوبت بصدق".

قلتها خائفًا، وصوت الذكر يعلو من حولي فصرخ في (المتولي):

-"لا مدد ولا زواد لمن لا يحب الله".

-"بس أنا مبكرهوش".

-"ولا تحبه".

-"ورحلتي لليمن والناس اللي بتموت كل يوم".

-"خالقهم أحن عليهم منك".

فلتت أعصابي وصوتي يعلو قائلًا بغضب:

-"شكلك وكلامك بيقولوا إنك عابد زاهد في الدنيا، لكن تسيب ناس بيموتوا علشان خاطر .. ".

لم أستطع إكمال جملتي عندما أحسست بشيء يدفعني في صدري بقوة مترين إلى الوراء، وقعت على الأرض وصدري يؤلمني، و(المتولي) يقول:

-"الزم الأدب في حديثك يا من ضللت طريقك، أتُعلِّم حامل حمول الأولياء التعبد".

صرخت عليه:

-"أنا عمري ما كان عندي طريق علشان أضله، ومكدبتش عليك لما سألتني".

-"ولم لم تكذب؟"

نهضت أترنح ووقفت أقول:

-"يمكن علشان البدوي قاللي أجاوبك من قلبي، ويمكن علشان محدش سامعني غيرك فمنكسفتش أقول الحقيقة".

-"ولماذا أخبروني أني سأقابل جندًا من جنود الله؟"

قالها (المتولي) وهو يتأملني باحتقار، فابتعدت للخلف خطوة باتجاه الباب وأنا أقول منكسرًا:

-"أنا مكاني مش هنا، حتى معرفش لحد دلوقت اشمعنى أنا اللي حصلي كدة".

فجأة دار رأسي ووجدت نفسي معلقًا كما أنا في المسجد بباسوس، وتكبيرات الناس من تحتي، نظرت لهم فسمعت صوتًا سكتوا جميعًا كأنهم يسمعوه معي، صوت (المتولي) يقول:

-"عد أيها الفقير إلى الله".

هأنا أجد نفسي واقفًا أمام (المتولي) كما كنت وهو يقول:

-"دهرًا وراء دهر، أستقبل الأولياء والمسافرين، لم يجبني أحدهم بمثل ما أجبت، ولم يلقب أحدهم بجند من جنود الله إلاك، ربما أنت أصدقهم وربما كنت أطهرهم".

خطا ناحيتي وهو يكمل:

-"وربما أرسلك الله لتعلمني شيئًا جديدًا".

وقف أمامي وصوت الذكر يعلو من حولنا وهو يقول:

-"إن القلب كالقمر، نراه يشع حبًا ونحسبه مضاءً، فنغفل عن جانبه المعتم، أما أنت فنظرت إلى العتمة وطلبت الضياء، فكنت أشد منا صدقًا، وأكثر منا قربًا، وأعدل منا نفسًا".

لم أنطق ولم أصدق ما يقول، هل حقًّا صدقي جعلني أفضل منهم؟ لكني صدقت بعيدًا عن الناس.

-"لكنك صدقت مع نفسك، ووالله إنه لأعظم ألوان الصدق".

-"كأنك قريت مخي".

-"بل نظرت لقلبك، اسأل يا سيدي وأنا أجيبك".

-"انت مين؟"

أشار لباب الغرفة المغلقة وقال:

-"ادخل"

ذهبت وفتحت الباب فهالني ما رأيت، ضوءًا أبيض من لا مكان، ينير الغرفة التي امتلأت بالغرائب، كأنني في متحف قديم، عشرات الأشياء معلقة على الحائط، ثياب ملونة وعصي وعمائم وقطع خشبية غريبة الشكل وسيوف وخناجر، سمعت هنا صوت (المتولي) من ورائي يقول:

-"أنا (المتولي) .. وليت حمل متعلقات الأولياء والأنبياء وأحمالهم".

أشار لسيف طويل ممتلئ بالزخارف والألوان وقال:

-"هذا سيف (آصف بن برخيا)، يفلق الجان والغيلان، ولا يمس بني الإنسان"

ثم أشار إلى عصا ضخمة طويلة يتجلى قدمها وقال:

-"وهذه عصا ولي الله الرفاعي، ضربة منها على الأرض تخضع لك الحيات والأفاعي"

ثم أشار لعموم المتعلقات قائلًا:

-"كل ولي ونبي يترك لي حملًا، ببركة الله وسره يؤدي غرضًا لم تسبقه إليه جن ولا إنس".

-"علشان كدة كان لازم أجيلك الأول".

دخل (المتولي) الغرفة وأمسك بكم طويل رمادي اللون معلق على الحائط، كأنه مقصوص من قميص، أخذه وأعطاني إياه، ففردته بين يدي أتأمل نقوشه السوداء التي امتلأت بأشكال غريبة، تخيلت أنني أرى كلمات صغيرة الحجم كتبت بطول الكم.

قربته لعيني أدقق وأنا أقرأ بصعوبة تلك الكلمات التي تقول: (سهام الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع، يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع، بألسنة تهمهم بالدعاء وأجفان تفيض من الدموع، إذا وترن ثم رمين سهمًا فما يغني التحصن بالدروع).

نظرت للمتولي مندهشًا فقال:

-"هذا درع (الدسوقي)، ارتدِه في يدك اليمنى".

أدخلت يدي فيه حتى وصل لكتفي لكنه كان واسعًا، فجأة انغلق علي يدي كأن له إرادة خاصة!، أصبح مقاس ذراعي تمامًا بينما (المتولي) يقول:

-"إن أشرت بهذه اليد لجني وفي نيتك إنزال الضر به تخشب وصُرع بموضعه في الحال".

تأملت الزخارف والنقوش مليًا حين أحضر (المتولي) عمامة خضراء وأعطاني إياها، ثم خرج لساحة المنزل قائلًا:

-"اتبعني".

تبعته وأصوات الذكر ما زالت قائمة كما هي، تأملت العمامة فوجدت كتابة واضحة عليها تقول: (فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد)، وقف في وسط المنزل ورفع

العمامة التي أرتديها بيده اليسرى وألقاها أرضًا، وأمرني أن أضع العمامة الخضراء وهو يقول:

-"وهذه عمامة (الشاذلي)"

عند وضعها على رأسي شهقت رعبًا، حولي يقف رجال مكونين دائرة، وهم يذكرون ويتمايلون، يرتدون البياض ووجوههم مموهة كأنها ممسوحة، خلعت العمامة بحركة سريعة خاطفة فاختفوا.

-"حين وضعها على رأسك ترى ما خفي عن عينيك".

قالها (المتولي) فنظرت له متسع العينين خائفًا، ربت على كتفي وقال:

-"بقي أن تترك لي حملًا".

فقت من خوفي وأنا أنتبه للسبحة التي أعطاني إياها البدوي، وأنا أفرد يدي بها للمتولي الذي قال:

-"سآخذها منك حين عودتك، مسبحة البدوي على كل حبة منها خادم من الجان، وهب نفسه لله، إن سبحت عليها رأيته وكان عونك ومددك".

نظرت للمسبحة مأخوذًا و(المتولي) يقول:

-"جهز نفسك لوجهتك يا بني".

ارتديت العمامة فعاد الرجال للظهور أمامي و(المتولي) يضع يده على رأسي قائلًا:

-"لله عباد تُطوَى لهم الأرض والشمس والقمر، فإن استغثت بهم صادقًا أدركوك في لمح البصر".

***

5

الصحراء أمامي لكني في وقت الظهر، جبال وصخور صفراء اللون، ما هذه الرائحة المنفرة؟ وضعت يدي الحرة على فمي متأففًا، هل وصلت لمكان بئر (قعر جهنم)؟

لبست العمامة وتجولت بنظري حتى وجدت على يميني على بُعد عشرات الأمتار شيئًا غريبًا، فتحة في الأرض تخرج منها حيات سوداء لكنها غريبة، لها قرون صغيرة! فجأة خرج من البئر رجلًا رفيعًا نحيلًا لا يرتدي شيئًا، رأسه ضخم جدًا، يشبه البيضة المقلوبة وصلعاء تمامًا، أما أذناه فطويلتان كأذني الحصان وقدمه تشبه قدم الجدي كما شبهه (علي).

أمسكت المسبحة وحركت حبة بإبهامي فلم يحدث شيء.

-"احذر يا سيدي خلفك".

سمعت الصوت يتردد بأذني فنظرت خلفي لأجد حية سوداء كالتي رأيتها تخرج من الكهف وهي تسير بسرعة ناحيتي، جاء الصوت يقول بسرعة:

-"إنه جني".

رفعت يدي اليمنى ناحية الحية فتوقفت فجأة.

-"هل تريدني أن أعيده لهيئته الحقيقية يا سيدي؟"

قالها الصوت فرددت:

-"أيوا".

فجأة تشكل عن يميني رجل يرتدي اللون الأبيض كمن رأيتهم عند (المتولي)، جرى ناحية الحية وأمسكها وهي لا تتحرك كأنها ميتة، هزها فتحولت لرجل نحيل مخيف المظهر يتكلم بلغة لا أفهمها.

-"بتقول إيه؟"

ظل ينظر لي والجني يكبل يديه خلف ظهره حتى قال:

-"يسب البشر أجمعين يا سيدي".

نظرت للمرتدي البياض وقلت:

-"انت مين؟"

-"أنا خادم مسبحة البدوي (ابن العازم)"

-"قوله قتلتوا ليه الشيخ (عوسج المصري)؟"

سأله فنظر الجني لي وتلفظ ببضعة ألفاظ:

-"لأنه كان غبيًا يا سيدي"

-"غبي علشان وقف قدامكم؟"

-"يقول بأن (عوسج) قتل تسعة عشر جنيًّا أمام بئر قعر جهنم بقوة خدامه من الجان ثم نزل فيه".

-"قتلتوه لأن قتل ناس منكم طبعًا"

ترجم (ابن العازم) كلماتي له فأصدر الجني صوتًا غريبًا كأنه يضحك وقال كلامًا كثيرًا، حتى قال (ابن العازم):

-"يقول يا سيدي، بأن (عوسج) جاء للبئر وهو لا يعرف أنه سجن بناه الجان قديمًا كي يسجنوا فيه كل من تمرد منهم، وعينوا عليه عشرين حارسًا، وعندما سقط طفل داخلها لم يقبل الحراس بإخراج أو إدخال أحد للبئر، حتى جاء (عوسج) فرأى الجان أمام البئر وتعارك معهم معتقدًا أنهم من خطفوا الطفل، ثم نزل البئر لنا، لكننا لم نرحمه".

ياللمصيبة، لقد فتح الشيخ (عوسج) السجن الذي احتوى على أشر الجان لذلك يعيثون فسادًا منذ قتل الحراس.

-"استنى .. انت بتقول إن السجن كان عليه 20 حارسًا، والعوسج قتل 19، فين الحارس الناقص؟"

سأله (إبن العازم) ثم قال:

-"للسجن طلاسم تربطهم به لا يعرف سرها إلا الحراس ومن وضعوهم عليه، لذلك يستطيعون التجول حول البئر لكن يعودون لها ليلًا وإلا ماتوا، فحبسوا الحارس الباقي بقاع البئر يحاولون استجوابه كي يخبرهم بفك الطلسم، لكنه يأبى".

-"تقدر تقتل الجني ده يا (إبن العازم)؟"

-"أمرك يا سيدي".

ادخل (ابن العازم) يده من ظهر الجني فخرجت من صدره كأن جسده شفاف، والجني يتألم لثوانٍ قبل أن تخبو حركته ويتركه (ابن العازم)، رفعت المسبحة وأخذت أحرك حباتها بإبهامي بسرعة وأنا أرى الجان يتشكلون من حولي يشبهون (ابن العازم) في هيئته.

-"عايز أنزل البير".

-"سبقناك، وإن ألقيت نفسك نلقفك بقاعها بإذن الله".

-"اسبقوني".

استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وأنا أجري ناحية البئر بعدما اختفى الجان من حولي، أقترب منه والجان الخارجين من البئر يقفون ناظرين لي، رفعت يدي باسطًا كفي ناحية أحدهم فتسمر مكانه، البئر تقترب وخوفي يزداد، هل من الغباء

أن أقفز؟ هل سأموت؟ ولو مت هنا، هل أموت بحياتي الأخرى؟ الغرائب كثيرة ولا يضيرها عمل مجنون يزيدها غرابة.

فتحة البئر الضخمة التي تساوي عشرات الأمتار تظهر مظلمة، وأنا أجري ناحيتها وأرفع يدي ناحية أي حية أو جني يقترب، نطقت الشهادتين بنفسي وقفزت.

ظلام دامس وأنا أهوى، صرخت بقوة والظلام يتحول لجدران المسجد بباسوس، وأنا أهوى من الأعلى للأسفل حتى اصطدمت بأيدي الأتباع وشيخهم وهم يلقفوني.

تبدل المسجد ووجدتني بين يدي خدام مسبحة البدوي وهم يعدلون من وضعي كي أقف على قدمي.

نظرت حولي متأملًا عالمًا غريبًا يأتي إليه ضوء النهار من فتحة لا أراها، غرف كثيرة مفتوحة وعشرات الجان يقفون حولنا وخدام المسبحة يحيطون بي في شكل دائرة، هل ستكون حربًا؟

-"الله .. الله .. الله".

أخذ خدام المسبحة يرددونها وهم يحيطون بي ويعطون وجوههم للجان الذين وقفوا حولنا كأنهم لا يستوعبون ما يحدث.

أنا نفسي لم أفهم ما يحدث، يذكرون الله كأنهم في الحضرة، هل سيمنع هذا السجناء من الفتك بنا؟ اقترب أحد الجان من خدام المسبحة ومد يده ناحيتهم فصعق كأنه تلقى دفعة كهرباء زائدة ووقع أرضًا، صرخت قائلًا:

-"قدني إلى الحارس الباقي يا (ابن العازم)".

وكأن بقية الخدام فهموا ما أقصد فتحركوا ناحية إحدى الغرف ببطء، وأنا أمشي بينهم محافظًا على خطوتي، هجم الكثير من الجان على الخدام لكنهم صعقوا جميعًا وصوت الخدام يعلو:

-"الله .. الله .. الله".

توقفنا عند غرفة مغلقة لمسها أحد الخدام، فانفجر بابها للداخل وغبار يتصاعد منها جعلني أغلق عيني للحظات، فتحت عيني فوجدت كائنًا يشبه الغوريلا له قرون طويلة وعين مشقوقة طوليًا، خرج من الغرفة وفجأة.

وجدت نفسي أمام (المتولي) ببيته وأصوات الذكر لم تنقطع من خدام المسبحة المحيطين بي:

-"إيه اللي حصل؟"

ابتسم (المتولي) الذي كان واقفًا وقال:

-"تحرر حارسهم وعاد لأسياده، وأتوا بحراس جدد".

خلعت العمامة فاختفى الخدام.

-"يعني خلاص؟"

قلتها وأنا ألهث فقال (المتولي):

-"انتهت مهمتك يا بني، شكرًا لما علمتني إياه".

خلعت الكم ووضعته على العمامة وسلمتهما للمتولي الذي أخذهما وقال:

-"عد بالمسبحة للبدوي وقل له، (المتولي) يقرئك السلام".

اختفى (المتولي) والمنزل ووجدت نفسي على السطح أمام البدوي الذي جلس يسبح الله وحوله جماعة من الناس بينهم (عبد العال)، انتفض الجالسون حول البدوي وهم يستعيذون بالله ويبسملون، بينما نظر البدوي لي بعينيه اللتين لم أر غيرهما وقال:

-"أهلًا بالمسافر".

مددت يدي بالمسبحة وقلت:

-"انتهت مهمتي، (المتولي) باعتلك السلام".

-"احتفظ بها، فقد علمني الله بك درسًا".

-"درس إيه؟"

-"رب عبد من عباد الله يحمل في روحه ذرة من صدق، أفضل من كل ولاة الأرض بمشارقها ومغاربها".

نهض أحد الجالسين ينظر لي فنظرت له واتسعت عيناي، أنا أعرفه، لقد قابلته في المسجد بباسوس.

-"هذا أحد أتباعي جاء من المغرب، (مصطفى بن عبد الرحمن) الملقب بسيف الله المغربي، سأرسله غدًا ليدعو إلى الله في قرية على ضفاف النيل تسمى (باسوس)، فبها مستقره ومقامه بإذن الله".

ابتسم لي (مصطفى) وقال:

-"السلام عليكم يا ولي الله، خبرني الشيخ (البدوي) عن كراماتك".

دارت الدنيا بي وشعرت بثقل رأسي، أسمع تكبيرات في أذني؟ رأسي يغوص وجسدي يرتخي.

فجأة وجدتني بين يدي (صالح) والشيخ يكبر في أذني، نهضت فطاوعني جسدي بسرعة، أتباع الشيخ من حولي ورجال لا أعتقد أنهم كانوا في المسجد أثناء الحضرة أو الصلاة، الجميع يهلل وبعضهم يحرك شفتيه كأنه يدعو، نظرت ليدي اليمنى فوجدتني أقبض على مسبحة البدوي.

-"لما شوفت المنام أول امبارح وجاني سيدي (سيف) فيه مصدقتش نفسي لما قاللي إن صاحب (صالح) ولي من أولياء الله وإنه جاي المسجد النهاردة، بركاتك".

قالها الشيخ وهو يمسك يدي يقبلها، نهضت مذهولًا وأنا أسمع أحدهم يقول:

-"من دقيقة واحدة كان نايم على الأرض وفجأة طار في السما ونزل تاني ومعاه سبحة، ده من أصحاب الخطوة".

الرجال يقبلون يدي ويلمسون كتفي كأنهم يأخذون منهما البركة والتكبيرات تدوي في المسجد، وأنا أفكر، هل أرسلت إلى البدوي و(المتولي) لأتعلم منهما أم لأعلمهما؟ هل ما حدث حقيقة أم حلم طويل؟ كيف جاءت تلك المسبحة ليدي؟ كيف قابلت روح (سيف الدين) في المسجد ؟

فتحت باب شقتي ودخلت بعدما تركني الشيخ وأتباعه أخيرًا، سمعت صوت أمي تقول:

-"اتأخرت ليه يا حبيبي؟ كنت فين؟"

جلست على أقرب مقعد لي وأنا أتحسس المسبحة في جيب سروالي وأقول:

-"كنت بزور واحد صاحبي عيان في (باسوس)"

جلست أمي على المقعد المجاور وهي تقول:

-"ياااااااااااااه، (باسوس)، تعرف إني زرتها مرة واحدة بس، كان لسة أبوك ميت وانت مكملتش سنة وعمال تعيط كل دقيقة من غير سبب .. واحدة جارتنا قالتلي خديه وزوري بيه مقام سيدي (سيف) اللي على البحر في (باسوس)".

نظرت لها فأكملت هي:

-"أخدتك ودخلت المقام وهناك قابلت واحد باين عليه خادم المقام أو حاجة كدة، كان اسمه (مصطفى) .. أيوا هو قاللي إن إسمه (مصطفى عبد الرحمن)، مش هانساه، أول ما حط إيده على راسك بطلت عياط وبقيت تضحك، ساعتها قاللي إنك في يوم من الأيام هاتبقى حاجة كبيرة أوي، وهاترجع المقام تاني .. بس سبحان الله مرجعتش تعيط زي الأول وبقيت طبيعي".

ضحكت .. وارتفعت ضحكاتي أكثر وأنا أرجع رأسي إلى الوراء، وأمي تقول:

-"ما تضحكني معاك".

***

تمت

PDF Eraser Free

أعطاني الكم ففردته بين يدي أتأمل نقوشه السوداء التي امتلأت بأشكال غريبة، تخيلت أنني أرى كلمات صغيرة الحجم كتبت عليه.

قربته لعيني أدقق وأنا أقرأ بصعوبة تلك الكلمات التي تقول: (سهام الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع، يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع، بألسنة تهمهم بالدعاء وأجفان تفيض من الدموع، إذا وترن ثم رمين سهماً فما يغني التحصن بالدروع



حسن الجندي

كاتب مصري تخصص في أدب الرعب منذ صدور أول أعماله عام 2008.

صدر له:

مخطوطة ابن اسحاق:

- الجزء الأول: مدينة الموتى
- الجزء الثاني: المرتد
- الجزء الثالث: العائد
- لقاء مع كاتب رعب
- الجزار
- فرغلي المستكاوي



غلاف: محمد عيد



دار اكتب للنشر والتوزيع
OKTOB PUBLISHING HOUSE

ALEF Bookstores
فى حضره الجان
*2195592195606
LE 20.0
Paperback